

الأثر المشهور عن الإمام مالك

رحمه الله

في صفة الاستواء

دراسة تحليلية

بقلم

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

أما بعد، فلا ريب في عظم فضل وكبر شرف العلم بأسماء الله وصفاته الواردة في كتابه وسنة رسوله ﷺ وفهمها فهماً صحيحاً سليماً بعيداً عن تحريفات المحرِّفين وتأويلات الجاهلين؛ إذ إنَّ شرف العلم تابعٌ لشرف معلومه، وما من ريب أنَّ أجلَّ معلوم وأعظمه وأكبره هو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين ، وقيوم السموات والأرضين، الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كلِّ عيب ونقص، وعن كلِّ تمثيل وتشبيه في كماله ﴿ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١).

ولا ريب أنَّ العلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ العلوم وأفضلها وأشرفها، ونسبة ذلك إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، والعلم به - سبحانه - هو أصل كلِّ علم ، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته ، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به، فالعلم به - سبحانه - عنوان سعادة العبد في الدنيا والآخرة، والجهل به أصل شقاوته في الدنيا والآخرة، ومن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ (٢)، وقد دلَّت هذه الآية على

(١) سورة الشورى، الآيتان: (١٠، ١١).

(٢) سورة الحشر، الآية: (١٩).

معنى شريف عظيم، وهو أن من نسي ربّه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده فصار معطلاً مهملاً^(١).

ولهذا فإنّ العناية بفهم هذا العلم وضبطه وعدم الغلط فيه أمر متأكد على كلّ مسلم، وقد كان أئمة المسلمين، الصحابة ومن تبعهم بإحسان على نهج واحد في هذا العلم وعلى طريقة واحدة، ليس بينهم في ذلك نزاع ولا خلاف، ((بل كلّهم [بحمد الله] على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلاً، ولم يحرفوها عن موضعها تبديلاً، ولم يُبدوا لشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورهم وأعجازها، ولم يقل أحدٌ منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها ، بل تلقّوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلّها أمراً واحداً، وأجرّوها على سنن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوا القرآن عِضين، وأقرّوا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين))^(٢).

بل زاد المعطّلة على ذلك فجعلوا جحد الصفات وتعطيل الربّ عنها توحيداً، وجعلوا إثباتها لله تشبيهاً وتجسيماً وتركيباً، فسّموا الباطل باسم الحق ترغيباً فيه، وزخرفاً ينفقونه به، وسمّوا الحقّ باسم الباطل تنفيراً عنه، والناس أكثرهم مع ظاهر السكّة، ليس لهم نقد النقاد^(٣).

ولا يأمن جانب الغلط في هذا الباب الخطير من لا يتعرّف على نهج السلف ويسلك طريقته، فهي طريقة سالمة مأمونة مشتملة على العلم والحكمة، وكلامهم في التوحيد وغيره قليلٌ كثيرُ البركة^(٤)، فهم لا يتكلّفون ، بل يعظّمون النصوص، ويعرفون لها حرمتها، ويقفون عندها، ولا يتجاوزونها برأي أو عقل أو وجدٍ أو غير ذلك.

فهم بحقّ الأئمة العدول والشهود الأثبات ، ولا يزال بحمد الله في كلّ زمان بقايا منهم ((يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالّ تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن عباد الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (ص: ٨٦).

(٢) إعلام الموقعين (١/٤٩).

(٣) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/٢٦، ٢٧).

(٤) انظر: مدارج السالكين (١/١٣٩)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٩).

للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين))^(١).

ولهذا فإن دراسة آثار هؤلاء وأقوالهم المنقولة عنهم في نصر السنة وتقرير التوحيد والرد على أهل الأهواء يُعدّ من أنفع ما يكون لطالب العلم، للتمييز بين الحق والباطل، والسنة والبدعة، والهدى والضلال؛ لأن هؤلاء الأئمة قد مضوا في معتقدهم على ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته من بعده، فهم بنبيهم محمد ﷺ مقتدون، وعلى منهاجه سالكون، ولطريقته مقتفون، وعن الأهواء والبدع المضلّة معرضون، وعلى الصراط المستقيم والمحجّة البيضاء سائرون، يوصي بذلك أولهم آخرهم، ويقتدي اللاحق بال سابق؛ ولهذا ((لو طالعت جميع كتبهم المصنّفة من أولهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم - مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطراً من الأقطار - وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمط واحد، يجرون فيه على طريقة واحدة، لا يحميدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد، ونقلهم واحد، لا ترى بينهم اختلافاً، ولا تفرقاً في شيء ما وإن قلّ، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء من قلب واحد، وجرى على لسان واحد))^(٢)، والسبب في ذلك هو لزوم الجميع سنة النبي ﷺ، وبُعدّهم عن الأهواء والبدع، فهم كما قال الأوزاعي - رحمه الله -: ((ندور مع السنة حيث دارت))^(٣)، فهذا شأنهم وديدئهم، يدورون مع السنة حيث دارت نفيّاً أو إثباتاً، فلا يشبتون إلا ما ثبت في الكتاب والسنة، ولا ينفون إلا ما نفي في الكتاب والسنة، لا يتجاوزون القرآن والحديث.

وهؤلاء الأئمة لم يكفوا عن الخوض فيما خاض فيه من سواهم لعجز منهم عن ذلك أو لضعف وعدم قدرة بل الأمر كما قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: ((... فإن السابقين عن علم وقفوا، وبصر نافذ كفوا، وكانوا هم أقوى على البحث ولم يبحثوا))^(٤). ومن كان على نهج

(١) مقتبس من مقدمة كتاب الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل.

(٢) الحجّة للتمييز (٢/٢٢٥، ٢٢٤)، وهو من كلام أبي المظفر السمعاني.

(٣) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (١/٦٤).

(٤) رواه ابن بطّة في الإبانة (١/٣٢١).

هؤلاء فهو في طريق آمنة وسبيل سالمة، قال محمد بن سيرين -رحمه الله-: ((كانوا يقولون: إذا كان الرجل على الأثر فهو على الطريق))^(١).

ولما كان الأمر بهذه المثابة وعلى هذا القدر من الأهمية أحييت أن أقدم دراسة لأحد الآثار المروية عن السلف الصالح -رحمهم الله- في تقرير التوحيد وردّ البدع والأهواء؛ ليكون -إن شاء الله- أنموذجاً للتدليل على عظم فائدة العناية بآثار السلف وعظم ما يحصله من غنيّ بذلك من فوائد وثمار ومنافع.

ولهذا نشطت في إعداد هذه الدراسة للأثر المشهور عن الإمام مالك -رحمه الله- عند ما جاءه رجل وقال له: يا أبا عبد الله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف استوى؟، فتأثر مالك -رحمه الله- من هذه المسألة الشنيعة وعلاه الرخصاء [أي العرق]، وقال في إجابته لهذا السائل: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))، وأمر بالسائل أن يخرج من مجلسه، وهو أثر عظيم النفع جليل الفائدة.

ويمكن أن أحدّد أهمّ الدوافع التي شجعت لتقديم هذه الدراسة لهذا الأثر خاصة في النقاط التالية:

أولاً: أن هذا الأثر قد تلقاه الناس بالقبول، فليس في أهل السنة والجماعة من ينكره، كما يذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-^(٢)، بل إن أهل العلم قد ائتمّوا به واستجودوه واستحسنوه^(٣).

ثانياً: أنه من أنبل جواب وقع في هذه المسألة وأشدّه استيعاباً؛ لأنّ فيه نبذ التكيف وإثبات الاستواء المعلوم في اللغة على وجه يليق بالله ﷻ^(٤).

ثالثاً: أن قوله هذا ليس خاصاً بصفة الاستواء، بل هو بمثابة القاعدة التي يمكن أن تُقال في جميع الصفات.

رابعاً: محاولة أهل البدع في القديم والحديث تبديل معناه وتحريف مراده بطرق متكلفة وسبل مختلفة.

خامساً: محاولة أحد جهال المعاصرين التشكيك في ثبوته والطعن في أسانيده.

(١) رواه ابن بطة في الإبانة (٣٥٧/١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٠٩/١٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥٢٠/٥).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٥٢٠/٥).

سادساً: التنبيه إلى أن بعض أتباع الأئمة في الفروع لم يوفقوا إلى العناية بمذهب أئمتهم في الأصول، ولهذا ترى في بعض من يتعصبون إلى مذهب الإمام مالك -رحمه الله- في الفروع من يخالفه في أصول الدين، ويفارقه في أساس المعتقد بسبب غلبة الأهواء وانتشار البدع. إلى غير ذلك من الأسباب، وقد جعلت هذه الدراسة بعنوان:

((الأثر المشهور عن الإمام مالك -رحمه الله- في صفة الاستواء، دراسة تحليلية))

أما الهدف من هذه الدراسة فهي إعطاء هذا الأثر مكانته اللاتقة به واستخراج الدروس والقواعد العلمية المستفادة منه، والردّ على تحريفات المناوئين، وتشكيكات المحرّفين. وقسمته إلى تمهيد وأربعة فصول وخاتمة على النحو التالي:

التمهيد، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام مالك بن أنس -رحمه الله-.

المبحث الثاني: في ذكر معتقد أهل السنة والجماعة في صفة الاستواء بإيجاز.

المبحث الثالث: في بيان أهمية القواعد وعظم نفعها في معرفة صفات الباري.

الفصل الأول: في تخريج هذا الأثر، وبيان ثبوته، وذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تخريج الأثر، وبيان ثبوته عن الإمام مالك -رحمه الله-.

المبحث الثاني: ذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة.

المبحث الثالث: ذكر نظائر هذا الأثر ممّا جاء عن السلف الصالح.

المبحث الرابع: ذكر كلام أهل العلم في التنويه بهذا الأثر، وتأكيدهم على أهميته، وجعله قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات.

الفصل الثاني: في ذكر معنى هذا الأثر، وبيان مدلوله وما يُستفاد منه من ضوابط في توحيد الأسماء والصفات، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: في معنى قوله: ((الاستواء غير مجهول)) والضوابط المستفادة منه.

المبحث الثاني: في معنى قوله: ((الكيف غير معقول)) والضوابط المستفادة منه.

المبحث الثالث: في معنى قوله: ((الإيمان به واجب)) والضوابط المستفادة منه.

المبحث الرابع: في معنى قوله: ((السؤال عنه بدعة)) والضوابط المستفادة منه.

الفصل الثالث: في إبطال تحريفات أهل البدع لهذا الأثر .
الفصل الرابع: في ذكر فوائد عامة مأخوذة من هذا الأثر، وفيه ثلاثة مباحث:
المبحث الأول: ذكر ما في قولهم: ((حتى علاه الرّحضاء)) من فائدة.
المبحث الثاني: ذكر ما في قوله: ((ما أراك إلاّ مبتدعاً)) من فائدة.
المبحث الثالث: ذكر ما في قوله: ((أخرجوه عني)) من فائدة.
الخاتمة: وفيها خلاصة البحث وأهم نتائجه.
هذا وإني أسأل الله الكريم أن يتقبّل مني هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله لوجهه خالصاً،
وللحق موافقاً، وأن يغفر لي ولوالديّ وللإمام مالكٍ ولجميع أئمة المسلمين، وللمسلمين
والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنّه هو الغفور الرحيم.

مهتد

لعل من الحسن قبل الشروع في الموضوع أن أمهد بذكر بعض الأمور المهمة بين يديه، وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام مالك بن أنس -رحمه الله-^(١).

أولاً: نسبه:

هو شيخ الإسلام، حجة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن حُثيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة، وهو حمير الأصغر، الحميري ثم الأصبحي المدني، حليف بني تميم من قريش، فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة. وأمه هي عالية بنت شريك الأزدية.

وأعمامه هم: أبو سهيل نافع، وأويس، والربيع، والنضر، أولاد أبي عامر.

ثانياً: مولده:

قال الذهبي -رحمه الله-: ((مولد مالك على الأصح في سنة ثلاث وتسعين، عام موت أنس خادم رسول الله ﷺ، ونشأ في صون ورفاهية وتجميل)).

ثالثاً: نشأته وطلبه للعلم:

طلب مالك العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهل للفتيا، وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة، وحدث عنه جماعة وهو حيٌّ شابٌ طريٌّ، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد، إلى أن مات.

رابعاً: شيوخه:

(١) وهي ملخصة من سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٨/٨ وما بعدها)، وللوقوف على مصادر ترجمة الإمام مالك انظر هامش السير، الصفحة المتقدمة.

طلب الإمام مالك -رحمه الله- العلم وهو حدثٌ بُعيد موت القاسم وسالم، فأخذ عن نافع، وسعيد المقبري، وعامر بن عبد الله ابن الزبير، وابن المنكدر، والزهري، وعبد الله بن دينار، وخلق.

وقد أحصى الذهبي -رحمه الله- شيوخه الذين روى عنهم في الموطأ وذكر إلى جنب كل واحد منهم عدد ما روى عنه الإمام مالك ورتبهم على حروف المعجم.
خامساً: تلاميذه:

قال الذهبي -رحمه الله-: ((وقد كنت أفردت أسماء الرواة عنه في جزء كبير يُقارب عددهم ألفاً وأربع مائة، فلنذكر أعيانهم، حدث عنه من شيوخه: عمه أبو سهيل، ويحيى بن أبي كثير، والزهري، ويحيى بن سعيد، ويزيد بن الهاد، وزيد بن أبي أنيسة، وعمر بن محمد بن زيد، وغيرهم، ومن أقرانه: معمر، وابن جريج، وأبو حنيفة، وعمرو بن الحارث، والأوزاعي، وشعبة، والثوري ...))، وذكر آخرين.

سادساً: مؤلفاته:

من مؤلفاته -رحمه الله-:

١. الموطأ.

٢. رسالة في القدر كتبها إلى ابن وهب.

٣. مؤلف في النجوم ومنازل القمر.

٤. رسالة في الأفضية.

٥. رسالة إلى أبي غسان بن مطرف.

٦. جزء في التفسير.

وأما ما نقله عنه كبار أصحابه من المسائل والفتاوى والفوائد فشيءٌ كثيرٌ.

سابعاً: ثناء العلماء عليه:

١. قال الشافعي: ((العلم يدور على ثلاثة: مالك، والليث، وابن عيينة)).

٢. وروي عن الأوزاعي أنه كان إذا ذكر مالكا يقول: ((عالم العلماء، ومفتي الحرمين)).

٣. وعن بقية أنه قال: ((ما بقي على وجه الأرض أعلم بسنة ماضية منك يا مالك)).

٤. وقال أبو يوسف: ((ما رأيت أعلم من أبي حنيفة، ومالك، وابن أبي ليلى)).

٥. وذكر أحمد بن حنبل مالكا فقدّمه على الأوزاعي، والثوري، والليث، وحماد، والحكم، في

العلم، وقال: ((هو إمام في الحديث، وفي الفقه)).

- ٦ . وقال القطان: ((هو إمام يُقتدى به)) .
 ٧ . وقال ابن معين: ((مالكٌ من حُجج الله على خلقه)) .
 ٨ . وقال أسد بن الفرات: ((إذا أردت الله والدار الآخرة فعليك بمالك)) .

ثامناً: أقواله في السنة:

- ١ . قال مطرف بن عبد الله: سمعتُ مالكا يقول: ((سنَّ رسول الله ﷺ وولاية الأمر بعده سنناً، الأخذُ بها اتباعٌ لكتاب الله ، واستكمالُ بطاعة الله، وقوَّةٌ على دين الله، ليس لأحدٍ تغييرها، ولا تبدلُها، ولا النظرُ في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً)) .
 ٢ . وروى إسحاق بن عيسى عن مالك -رحمه الله- أنه قال: ((أكلما جاءنا رجلٌ أجدلٌ من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله)) .
 ٣ . وقال أبو ثور: سمعت الشافعي يقول: ((كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: أما إني على بينة من ديني، وأما أنت فشاك، اذهب إلى شاك مثلك فخاصمه)) .
 ٤ . وقال يحيى بن خلف الطرسوسي: ((كنت عند مالك فدخل عليه رجل، فقال: يا أبا عبد الله ما تقول فيمن يقول: القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق، اقتلوه، فقال: يا أبا عبد الله، إنما أحكي كلاماً سمعته، قال: إنما سمعته منك، وعظم هذا القول)) .
 ٥ . وروى ابن وهب عن مالك -رحمه الله- أنه قال: ((الناس ينظرون إلى الله ﷻ يوم القيامة بأعينهم)) .
 ٦ . وقال القاضي عياض: قال معن: ((انصرف مالك يوماً فلحقه رجلٌ يُقال له: أبو الجويرية، متهمٌ بالإرجاء، فقال: اسمع مني، قال: احذر أن أشهد عليك، قال: والله ما أريد إلا الحق، فإن كان صواباً فقل به، أو فتكلم، قال: فإن غلبتني، قال: اتبعني، قال: فإن غلبتكَ، قال: اتبعتك، قال: فإن جاء رجل فكلّمنا، فغلبنا؟ قال: اتبعناه، فقال مالك: يا هذا، إن الله بعث محمداً ﷺ بدين واحد، وأراك تتنقل)) .
 ٧ . وعن مالك قال: ((الجدلُ في الدين ينشئ المرء، ويذهب بنور العلم من القلب ويقسي، ويورث الضغن)) .
 تاسعاً: وفاته:
- قال القعني: ((سمعتهم يقولون: عُمر مالك تسع وثمانون سنة، مات سنة تسع وسبعين ومائة)) .

وقال إسماعيل بن أبي أويس: ((مرض مالك، فسألتُ بعض أهلنا عما قال عند الموت، قالوا: تشهّد، ثم قال: ﴿لِلّهِ الْأُمُورُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾^(١)، وتوفي صبيحة أربع عشرة من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، فصلى عليه الأمير عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي، ولدت زينب بنت سليمان العباسية، ويُعرف بأمه))، رواها محمد بن سعد عنه، ثم قال: ((وسألتُ مصعباً، فقال: بل مات في صفر، فأخبرني معن بن عيسى بمثل ذلك)).
 وقال أبو مصعب الزهري: ((مات لعشر مضت من ربيع الأول سنة تسع)).
 وقال محمد بن سحنون: ((مات في حادي عشر ربيع الأول)).
 وقال ابن وهب: ((مات لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول)).
 قال القاضي عياض: ((الصحيح وفاته في ربيع الأول يوم الأحد لتمام اثنين وعشرين يوماً من مرضه)).

قال الذهبي: ((تواترت وفاته في سنة تسع، فلا اعتبار لقول من غلط وجعلها في سنة ثمان وسبعين، ولا اعتبار بقول حبيب كاتبه، ومطرّف فيما حكى عنه، فقالا: سنة ثمانين ومائة)).
 ونقل عن القاضي عياض أنّ أسد بن الفرات قال: ((رأيتُ مالكاَ بعد موته، وعليه طويلة وثياب خضر وهو على ناقه، يطير بين السماء والأرض، فقلت: يا أبا عبد الله، أليس قد متّ؟ قال: بلى، فقلت: فيلأم صرت؟، فقال: قدِمتُ على ربي وكلمني كفاحاً، وقال: سلني أعطك، وتمنّ عليّ أرضك)).
 فرحمه الله، وغفر له، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنّة.

(١) سورة الروم، الآية: (٤).

المبحث الثاني: في ذكر معتقد أهل السنة والجماعة في صفة الاستواء بإيجاز

الاستواء صفة من صفات الكمال الثابتة لذي العظمة والجلال -سبحانه-، وقد دلّ النقل على هذه الصفة حيث أثبتتها الربّ -سبحانه- لنفسه في كتابه، وأثبتها له رسوله ﷺ في سنته، وأجمع على ثبوتها المسلمون.

وقد وردت هذه الصفة في القرآن الكريم في مواطن عديدة، وكان ورودها فيه على نوعين: تارة معدّاة بـ ((على))، وتارة معدّاة بـ ((إلى)).

١ . أمّا النوع الأول: وهو مجيئها معدّاة بـ ((على)) فقد ورد في القرآن الكريم في سبعة مواضع، حيث تمدّح بها الربّ -سبحانه-، وجعلها من صفات كماله وجلاله، وقرنها بما يبهز العقول من صفات الجلال والكمال، مما يدل على ثبوت هذه الصفة العظيمة لله ثبوت غيرها من الصفات.

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- : ((اعلموا أنّ هذه الصفة التي هي الاستواء صفة كمال وجلال تمدّح بها ربّ السموات والأرض، والقريظة على أنّها صفة كمال وجلال أنّ الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلاّ مصحوبة بما يبهز العقول من صفات جلاله وكمالته التي هي منها، وسنضرب مثلاً بذكر الآيات:

فأول سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة الأعراف قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١)، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

الموضع الثاني في سورة يونس قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ

(١) سورة الأعراف، الآية: (٥٤).

شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿١﴾

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الكمال والجلال.

الموضع الثالث في سورة الرعد في قوله جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ مِثْلَيْنِ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يَسْتَقِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾، وفي القراءة الأخرى: ﴿وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ تَسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

الموضع الرابع في سورة طه: ﴿طَهَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَىٰ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٣﴾.

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

(١) سورة يونس، الآيات: (٦٠ - ٣).

(٢) سورة الرعد، الآيات: (٤٠ - ٢).

(٣) سورة طه، الآيات: (٧٠ - ١).

الموضع الخامس في سورة الفرقان في قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ ذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا ﴾^(١).

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الكمال والجلال.

الموضع السادس في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتُنذِرَنَّهُمْ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾^(٢).

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الجلال والكمال.

الموضع السابع في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٣) ((^(٤))).

أما النوع الثاني: وهو مجيئها معداة بـ ((إلى)) فقد ورد في القرآن في موطنين:

الأول في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٥).

(١) سورة الفرقان، الآيات: (٥٨، ٥٩).

(٢) سورة السجدة، الآيات: (٣، ٩).

(٣) سورة الحديد، الآيات: (٤، ٣).

(٤) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص: ١٥، ١٧).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٩).

الثاني: في سورة فَصَّلَتْ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١).

والاستواء معناه معلوم في لغة العرب ، لا يجهله أحد منهم، والله قد خاطب عباده في القرآن الكريم بكلام عربي مبين، والاستواء معناه في اللغة العلوّ والارتفاع^(٢).

ولهذا فإنّ مذهب السلف في الاستواء هو إثباته لله ﷻ كما أثبتته لنفسه، وكما أثبتته له رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكيف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأنّ الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله، ولا يشبه استواء أحد من خلقه -تعالى الله عن ذلك-، ومعنى الاستواء عندهم العلوّ والارتفاع، ولا خلاف بينهم في ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: ((وكلام السلف والأئمة ومن نقل مذهبهم في هذا الأصل كثير يوجد في كتب التفسير والأصول.

قال إسحاق بن راهويه: حدثنا بشر بن عمر: سمعت غير واحد من المفسرين يقولون: ((﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: أي ارتفع))^(٣).

وقال البخاري في صحيحه: قال أبو العالية: ((استوى إلى السماء: ارتفع))، قال: وقال مجاهد: ((استوى: علا على العرش))^(٤).

وقال الحسين بن مسعود البغوي في تفسيره المشهور: ((وقال ابن عباس وأكثر مفسري السلف: استوى إلى السماء: ارتفع إلى السماء، وكذلك قال الخليل بن أحمد))^(٥).

وروى البيهقي في كتاب الصفات قال: قال الفراء: ((ثم استوى، أي صعد، قاله ابن عباس، وهو كقولك للرجل: كان قاعداً فاستوى قائماً))^(٦).

(١) سورة فَصَّلَتْ، الآية: (١١).

(٢) هذا إذا كان معدي ب ((إلى)) أو ((على))، أما إذا كان مطلقاً كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾ فإنّ معناه: كئيل وتمّ، وأمّا إذا كان مقروناً بواو (مع) التي تعدي الفعل إلى المفعول معه نحو: ((استوى الماء والخشبة)) فإنّ معناه ساواها، انظر: مختصر الصواعق (ص: ٣٢٠).

(٣) أورده الذهبي في العلو، وقال الألباني -حفظه الله- (ص: ١٦٠ . مختصره): ((وهذا إسناد صحيح مسلسل بالثقات الحفاظ ...))

(٤) صحيح البخاري (٤٠٣/١٣ . الفتح).

(٥) تفسير البغوي (٥٩/١).

(٦) الأسماء والصفات (٣١٠/٢).

وروى الشافعي في مسنده عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال عن يوم الجمعة: ((وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش))^(١).

والتفاسير المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين مثل تفسير محمد بن جرير الطبري، وتفسير عبد الرحمن بن إبراهيم المعروف بدحيم، وتفسير عبد الرحمن بن أبي حاتم، وتفسير أبي بكر بن المنذر، وتفسير أبي بكر عبد العزيز، وتفسير أبي الشيخ الأصبهاني، وتفسير أبي بكر بن مردويه، وما قبل هؤلاء من التفاسير مثل تفسير أحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم، وبقي بن مخلد وغيرهم، ومن قبلهم مثل تفسير عبد بن حميد، وتفسير سُنيد، وتفسير عبد الرزاق، ووكيع بن الجراح فيها من هذا الباب الموافق لقول المثبتين ما لا يكاد يُحصى، وكذلك الكتب المصنفة في السنة التي فيها آثار النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين^(٢).

وجاء عن الخليل بن أحمد قال: ((أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت وكان على سطح فلما رأيناه أشرنا إليه بالسلام، فقال: استنوا، فلم ندر ما قال، فقال لنا شيخ عنده: يقول لكم: ارتفعوا، قال الخليل: هذا من قوله تعالى: ﴿ تَمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾^(٣)، أي: ارتفع وعلا^(٤).

والاستواء سواء عُديّ بـ"إلى" أو بـ"على" فمعناه العلو والارتفاع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: ((ومن قال: استوى بمعنى عمَد، ذكره في قوله: ﴿ تَمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾؛ لأنَّه عُدي بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا، وقصدت إلى كذا، ولا يقال: عمدت على كذا ولا قصدت عليه، مع أنَّ ما ذُكر في تلك الآية لا يُعرف في اللغة أيضاً، ولا هو قول أحد من

(١) مسند الشافعي (ص: ٧٠٠ - ٧١٠)، ورواه الذهبي في العلو من طريق الشافعي (ص: ٢٩٠ - ٣٠٠) ثم قال: ((إبراهيم وموسى ضعفاء، أخرجه الإمام محمد بن إدريس في مسنده، وقد أخرجه الدارقطني من طريق حمزة بن واصل المنقري، عن قتادة، عن أنس، ومن طريق عنبسة الرازي، عن أبي اليقظان عثمان بن غمير، عن أنس، عن ابن محمد بن شعيب بن سابور، عن عمر مولى عفرة، عن أنس.

وأخرجه القاضي أبو أحمد العسّال في كتاب المعرفة له عن رجال، عن جرير ابن عبد الحميد، عن ليث بن أبي سليم، عن عثمان بن أبي حميد. وهو أبو اليقظان. عن أنس، ورواه من طريق سلام بن سليمان، عن شعبة وإسرائيل وورقاء، عن ليث أيضاً.

وساقه الدارقطني من رواية شجاع بن الوليد، عن زيادة بن خيثمة، عن عثمان ابن أبي سليمان، عن أنس، والظاهر أنَّ عثمان أبو اليقظان، وحَدَّث به الوليد ابن مسلم، عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن سالم بن عبد الله، عن أنس ابن مالك، وهذه طرق يعضد بعضها بعضاً، رزقنا الله وإياكم لَدَّةَ النظر إلى وجهه الكريم)) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٠٠ - ٢٢٠)، وانظر أيضاً: مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٨ وما بعدها).

(٣) سورة فصلت، الآية: (١١).

(٤) أورده الذهبي في العلو (ص: ١٧١ - مختصره).

مفسري السلف ؛ بل المفسرون من السلف قولهم بخلاف ذلك - كما قدّمناه عن بعضهم - ((^(١)، وقد حكى ابن القيم - رحمه الله - إجماع السلف على ذلك^(٢))).
 فهذا ملخّص معتقد أهل السنة والجماعة في هذه الصفة، ومن أراد الاطلاع على كلام أهل العلم في هذه الصفة موسّعاً فليطالع الكتب التي أُفردت في ذلك وهي كثيرة جداً، وكما قال السفاريني - رحمه الله -: ((وقد أكثر العلماء من التصنيف، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم من التأليف، في ثبوت العلوّ والاستواء ونّبّهوا على ذلك بالآيات والحديث وما حوى، فمنهم الراوي الأخبار بالأسانيد، ومنهم الحاذق لها وأتى بكلّ لفظ مفيد، ومنهم المطوّل المُسهّب، ومنهم المُختصر والمتوسّط والمهدّب، فمن ذلك ((مسألة العلوّ)) لشيخ الإسلام ابن تيمية، و((العلوّ)) للإمام الموفق صاحب التصانيف السنية، و((الجيوش الإسلامية)) للإمام المحقق ابن قيم الجوزية، و((كتاب العرش)) للحافظ شمس الدين الذهبي صاحب الأنفاس العلية، وما لا أحصي عدّهم إلاّ بكلفة، والله تعالى الموقّق))^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٥/٥٢١).

(٢) مختصر الصواعق (ص: ٣٢٠).

(٣) لوامع الأنوار البهية (١/١٩٦، ١٩٥).

المبحث الثالث: في بيان أهمية القواعد وعظم نفعها في معرفة صفات الباري

لا ريب أن معرفة القواعد والأصول والضوابط الكلية الجامعة يُعدُّ من أعظم العلوم وأجلها نفعاً وأكثرها فائدةً، ذلك أن ((الأصول والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للبناء والأصول للأشجار لا ثبات لها إلا بها، والأصول تبنى عليها الفروع، والفروع تثبت وتتقوى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى وينمي نماءً مطرداً ، وبها تُعرف مآخذ الأصول، وبها يحصل الفرقان بين المسائل التي تشبه كثيراً، كما أنها تجمع النظائر والأشباه التي من جمال العلم جمعها))^(١) إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة والمنافع الجليلة التي لا تحصى.

بل إن ((من محاسن الشريعة وكمالها وجمالها وجلالها: أن أحكامها الأصولية والفروعية والعبادات والمعاملات وأمورها كلها لها أصول وقواعد تضبط أحكامها وتجمع مُتفرقاتها وتُنشر فروعها وتردُّها إلى أصولها))^(٢).

والقاعدة: هي أمرٌ كليٌّ ينطبق على جزئيات كثيرة تُفهم أحكامها منها^(٣). فإذا ضُبطت القاعدة وفُهم الأصلُ أمكن الإمام بكثيرٍ من المسائل التي هي بمثابة الفرع لهذه القاعدة، وأمن الخلط بين المسائل التي قد تشبهه، وكان فيها تسهيلٌ لفهم العلم وحفظه وضبطه، وبها يكون الكلام مبنياً على علمٍ متينٍ وعدلٍ وإنصافٍ.

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: ((لا بُدَّ أن يكون مع الإنسان أصولٌ كليةٌ تُردُّ إليها الجزئيات؛ ليتكلم بعلمٍ وعدلٍ، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئيات، وجهلٍ وظلمٍ في الكليات فيتولد فسادٌ عظيمٌ))^(٤).

لأجل هذا عُني أهل العلم كثيراً بوضع القواعد وجمعها في الفنون المختلفة، فلا تكاد تجد فناً من الفنون إلا وله قواعدٌ كثيرةٌ وضوابطٌ عديدةٌ تجمع مُتفرقاته، وتُريل مشتبّهه، وتُنير معالمه، وتُيسر

(١) طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول للشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ص:٤).

(٢) الرياض الناضرة للشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ص:٢٤٣).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير للفتوح (ص:٦).

(٤) الفتاوى (٢٠٣/١٩).

فهّمه وحفظه وضبطه^(١)، ((ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل))^(٢).

ولهذا فإنّه يترتب على العناية بالقواعد المأثورة والأصول الكليّة المنقولة عن السلف الصالح - رحمهم الله - من الفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلاّ الله؛ لأنّ فيها كما يقال وضعُ النقاط على الحروف، وفيها تجليّة للأُمور، وتوضيحٌ للمسائل، وإزالةٌ لللبس، وأمنٌ من الخلط، إلى غير ذلك من الفوائد.

(١) انظر: مقدمة الرسالة التي بعنوان: ((فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى)) المستلّة من بدائع الفوائد لابن القيم، بتحقيقي.

(٢) تفسير ابن سعدي (٣/٥).

الفصل الأوّل

في تخريج هذا الأثر، وبيان ثبوته،
وذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة
وأقوال السلف الصالح

المبحث الأوّل : تخريج هذا الأثر وبيان ثبوته عن الإمام مالك -رحمه الله-

لقد اشتهر هذا الأثر عن الإمام مالك -رحمه الله- شهرة بالغة ، ورواه عنه طائفة من تلاميذه، وهو مروى عنه من طرق عديدة، وقد حظي باستحسان أهل العلم، وتلقّوه بالقبول، وهو مخرّج في كتب عديدة من كتب السنة. وفيما يلي ذكرٌ لما وقفت عليه من طرق لهذا الأثر مع ذكر مخرّجها، وما وقفت عليه من كلام أهل العلم في بيان ثبوته.

١ . رواية جعفر بن عبد الله^(١)

قال الحافظ أبو نعيم في الحلية: حدّثنا محمد بن علي بن مسلم العقيلي، ثنا القاضي أبو أمية الغلابي، ثنا سلمة بن شبيب^(٢)، ثنا مهدي بن جعفر^(٣)، ثنا جعفر بن عبد الله قال: كنا عند مالك

(١) عدّه الذهبي في المشته في الرواة عن مالك، وتعبّه ابن ناصر الدين في توضيح المشته (٩٨/٤ . ٩٩) بقوله: ((فيه نظر؛ لأنّ هذا الإطلاق يوهم أنّ شيخ جعفر مالك بن أنس الإمام، وكأنّه . والله أعلم . عند المصنّف الإمام مالك، فلهذا أطلقه، وليس بالإمام، إنّما هو مالك بن خالد الأسدي البصري كما سمّاه الأمير وغيره))، وذكر نحواً من هذا ابن حجر في تبصير المنتبه (٦٢١/٢).

(٢) هو سلمة بن شبيب النيسابوري أبو عبد الرحمن الحنّوري المسمّى، نزيل مكة. قال أبو حاتم: ((صدوق))، وقال أبو نعيم: ((أحد الثقات، حدّث عنه الأئمة والقدماء))، توفي سنة (٢٤٧هـ)، انظر: تهذيب الكمال (٢٨٤/١١).

(٣) هو مهدي بن جعفر بن جيهان بن بمرام الرملي، أبو محمد. قال فيه ابن حجر: ((صدوق له أوهام)) كما في التقريب له (برقم: ٦٩٧٩). ونقل ابن حجر في تهذيبه (٢٨٩/١٠) عن الذهبي قوله: ((رأيت له رواية عن مالك في تفسير ابن أبي حاتم))، توفي سنة

بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف استوى؟، فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكتُ بعود في يده حتى علاه الرّحضاء - يعني العرق - ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: ((الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))، وأمر به فأخرج^(١).

ورواه الإمام أبو إسماعيل الصابوني في كتابه ((عقيدة السلف)) قال: أخبرنا أبو محمد المخلدي العدل، حدّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن مسلم الإسفراييني، حدّثنا أبو الحسين علي بن الحسن، حدّثنا سلمة بن شبيب به، وذكر نحوه، إلاّ أنّه قال: ((الكيف غير معلوم))^(٢).
ورواه أيضاً الإمام الصابوني من طريق أخرى قال: أخبرنا به جدّي أبو حامد أحمد بن إسماعيل، عن جدّ والدي الشهيد، وأبو عبد الله محمد بن عدي بن حمدويه الصابوني، حدّثنا محمد بن أحمد ابن أبي عون النسوي، حدّثنا سلمة بن شبيب به^(٣).

ورواه الحافظ اللالكائي في شرح الاعتقاد من طريق علي بن الربيع التميمي المقرئ قال: ثنا عبد الله بن أبي داود قال: ثنا سلمة ابن شبيب به، باللفظ السابق^(٤).

وتابعه بكار بن عبد الله^(٥) عن مهدي بن جعفر عن مالك، ولم يذكر شيخه جعفر بن عبد الله. أخرجه ابن عبد البر في التمهيد^(٦)، أخبرنا محمد بن عبد الملك قال: حدّثنا عبد الله بن يونس قال: حدّثنا بقي بن مخلد قال: حدّثنا بكار بن عبد الله القرشي قال: حدّثنا مهدي بن جعفر عن مالك ابن أنس أنّه سئل عن قول الله ﷻ ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾: كيف استوى؟،

(٢٣٠هـ).

(١) الحلية لأبي نعيم (٣٢٦، ٣٢٥)، ورواه الذهبي في السير (١٠٠/٨) من طريق أبي نعيم.

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص: ٣٨).

(٣) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص: ٣٩).

(٤) شرح الاعتقاد (٣/٣٩٨).

قال الألباني - حفظه الله -: ((وأما ما عزاه إليه صاحب ((فرقان القران بين صفات الخالق وصفات الأكوان)) (ص: ١٦): بلفظ: ((الاستواء مذكور)) فلم أره فيه، ولا رأيت من ذكره غير المشار إليه، وهو من الثقات [كذا في الأصل وهو تصحيف من الطابع، والصواب ((وهو من النفاة))]؛ ولذلك ركن إلى هذا اللفظ لأن فيه ما يريد من نفي معنى الاستواء وأنه معروف عند مالك))، مختصر العلوّ (ص: ١٤٢).

(٥) هو بكار بن عبد الله بن بسر بن أرطاة الدمشقي القرشي.

روى عن أسد بن موسى، وروى عنه أحمد بن أبي الحواري وأبو حاتم وأبو زرعة.

قال ابن أبي حاتم: ((كتبت عنه عن أبي وسألته عن بكار هذا؟ فقال: ((هو صدوق))، الجرح والتعديل (١/١٠١/٤١٠).

(٦) (١٥١/٧).

قال: فأطرق مالك ثم قال: ((استواؤه مجهول^(١))، والفعل منه غير معقول، والمسألة عن هذا بدعة)) .

وتابعه أيضاً الإمام الدارمي، قال في كتابه الردّ على الجهميّة: حدّثنا مهدي بن جعفر الرملي ثنا جعفر بن عبد الله . وكان من أهل الحديث ثقة . عن رجل قد سمّاه لي، قال: جاء رجل إلى مالك ابن أنس، وذكره^(٢) .

فزاد في إسناده بعد جعفر بن عبد الله: ((عن رجل)) .

ومهدي بن جعفر صدوق له أوهام وقد اضطرب في روايته لهذه القصة، فرواها مرّة عن شيخه جعفر بن عبد الله عن مالك، ورواها مرّة أخرى عن شيخه جعفر عن رجل عن مالك، ورواها مرّة ثالثة عن مالك مباشرة، وهذا الاضطراب الذي في هذه الطريق لا ينفي صحة القصة؛ لأنّها قد جاءت من طرق أخرى تعضدها وتقويها - كما سيأتي - .

٢ . رواية عبد الله بن وهب^(٣)

قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أحمد بن محمد بن إسماعيل بن مهران^(٤)، ثنا أبي^(١)، حدّثنا أبو الربيع بن أخي رشدين ابن سعد^(٢) قال: سمعت عبد الله بن وهب يقول: كنا عند

(١) كذا وردت العبارة في التمهيد وهي يقيناً مخزفة، والصواب كما في الطرق المتقدمة للأثر وغيرها ((استواؤه غير مجهول))، وقد أفادني أحد طلاب العلم الثقات باطلاعه على النسخة الخطية للتمهيد في المغرب ووجد لفظة [غير] ملحقة بالهامش من الناسخ، ثم وقفت على مصورة لها فوجدت الأمر كذلك.

(٢) الردّ على الجهميّة (ص: ٥٥، ٥٦).

(٣) هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي الفهري، أبو محمد.

روى عن خلق كثير، وثقه ابن معين وأبو زرعة، وقال فيه أحمد بن حنبل: ((ما أصحّ حديثه وأثبتّه)) .

وهو من أثبت الناس في مالك؛ فقد قال هارون بن عبد الله الزهري: ((كان الناس يختلفون في الشيء عن مالك، فينتظرون قدوم ابن وهب حتى يسألوه عنه)) .

وقال أبو مصعب: ((مسائل ابن وهب عن مالك صحيحة))، توفي سنة (١٩٧هـ)، تهذيب الكمال (١٦/ ٢٧٧ . ٢٨٦).

وقال فيه ابن حجر في التقریب (رقم: ٣٧١٨): ((ثقة حافظ عابد)) .

(٤) أحمد بن محمد بن إسماعيل بن مهران الإسماعيلي النيسابوري أبو الحسن.

قال فيه الذهبي في تاريخ الإسلام (وفيات ٣٣١هـ فما بعدها) (ص: ١٨٧): ((أبو الحسن الإسماعيلي النيسابوري العدل)) .

وقال السمعاني في الأنساب (١/ ١٥٥): ((كان كثير السماع من أبيه)) .

مالك بن أنس فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف استواؤه؟، قال: فأطرق مالك وأخذته الرخصاء ، ثم رفع رأسه فقال: ((الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه، قال: فأخرج))^(٣).

قال الذهبي في العلوّ: ((وساق البيهقي بإسناد صحيح عن أبي الربيع الرشديني عن ابن وهب ...)) وذكره^(٤).

وقال الحافظ ابن حجر: ((وأخرج البيهقي بسند جيد عن ابن وهب ...)) وذكره^(٥).

٣ . رواية يحيى بن يحيى التميمي^(٦)

قال البيهقي - رحمه الله - في كتابه الأسماء والصفات:

أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن الحارث الفقيه الأصفهاني^(٧)، أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان المعروف بأبي الشيخ^(٨)، ثنا أبو جعفر أحمد بن زيرك اليزدي: سمعت محمد بن عمرو بن النضر النيسابوري^(٩) يقول: سمعت يحيى بن يحيى يقول: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ فكيف استوى؟، قال: فأطرق

(١) محمد بن إسماعيل بن مهرا بن بكر الإسماعيلي، قال فيه الحاكم: ((هو أحد أركان الحديث بنيسابور، كثرة ورحلة واشتهاراً ... ثقة مأمون))، قال إبراهيم ابن أبي طالب: ((لم يجوّد لنا حديث مالك كالإسماعيلي))، توفي سنة (٢٩٥هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/١١٧ - ١١٨).

(٢) أبو الربيع هو سليمان بن داود بن حماد بن سعد المهري، وجدّه حماد بن سعد أخو رشدين بن سعد، توفي سنة (٢٥٣هـ).

ترجم له المزني في تهذيب الكمال (١١/٤٠٩ - ٤١٠)، وذكر أنّ النسائي وثّقه.

(٣) الأسماء والصفات (٢/٣٠٤)، وأورده الذهبي في العلوّ (ص: ٤١ مختصره) والأربعين (ص: ٨٠ ضمن مجموع الرسائل الست للذهبي) والسير (٨/١٠٠).

(٤) مختصر العلوّ (ص: ١٤١).

(٥) فتح الباري (١٣/٤٠٧، ٤٠٦).

(٦) هو يحيى بن يحيى بن بكر التميمي أبو زكريا النيسابوري.

وثّقه أحمد وابن راهويه والنسائي وغيرهم. توفي سنة (٢٢٦هـ)، تهذيب الكمال (٣٢/٣٧٠٣١).

(٧) أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن الحارث الفقيه التميمي الأصفهاني، قال فيه الذهبي في تاريخ الإسلام (وفيات ٤٣٠هـ) (ص: ٢٨١): ((الزاهد المقرئ النحوي الحدّث ...، وكان إماماً في العربية)).

(٨) أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان المعروف بأبي الشيخ، قال فيه الخطيب البغدادي: ((كان أبو الشيخ حافظاً ثباتاً متقناً))، توفي سنة (٣٦٩هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/٢٧٧ - ٢٧٩).

(٩) أبو علي محمد بن عمرو بن النضر الجرشي النيسابوري، قال الذهبي في تاريخ الإسلام (وفيات: ٢٨١ - ٢٩٠) (ص: ٢٨٢): ((وكان صدوقاً مقبولاً)).

مالك رأسه حتى علاه الرخصاء ثم قال: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً. فأمر به أن يُخرج))^(١).
ورواه البيهقي في كتابه الاعتقاد بالإسناد نفسه^(٢).
وأورده الذهبي في العلوّ قال: وروى يحيى بن يحيى التميمي وجعفر بن عبد الله وطائفة، وذكره ثم قال: ((هذا ثابت عن مالك))^(٣).
وقال الإمام شمس الدين محمد بن عبد الهادي في كتابه في الاستواء: ((صحيح ثابت عن مالك))^(٤).

٤ . رواية جعفر بن ميمون^(٥)

قال الإمام أبو إسماعيل الصابوني حدّثنا أبو الحسن بن إسحاق المدني، حدّثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشافعي^(٦)، حدّثنا شاذان، حدّثنا ابن مخلد بن يزيد القهستاني، حدّثنا جعفر بن ميمون قال: سئل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف استوى؟، قال: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً، وأمر به أن يخرج من مجلسه))^(٧).

٥ . رواية سفيان بن عيينة^(٨)

(١) الأسماء والصفات (٢/٣٠٦، ٣٠٥).
(٢) الاعتقاد (ص: ٥٦)، مختصر العلوّ (ص: ١٤١).
(٣) مختصر العلوّ (ص: ١٤١).
(٤) (ق: ٤) وهو عندي قيد التحقيق.
(٥) هو جعفر بن ميمون التميمي أبو عليّ، ويقال: أبو العوّام الأنماطي.
روى عن أبي العالية وعطاء بن أبي رباح وغيرهما، وروى عنه السفيانان ويحيى بن سعيد القطان وغيرهم.
قال عنه أحمد: ((ليس بقويّ في الحديث))، ونحوه عن النسائي.
وقال فيه ابن معين: ((ليس بذاك))، وقال في موضع آخر: ((ليس بثقة))، وقال في موضع آخر: ((صالح الحديث)).
وقال أبو حاتم: ((صالح))، ولعله من أجل هذا قال فيه الدارقطني: ((يُعتَبَرُ به)).
انظر: تهذيب الكمال (٥/١١٥، ١١٤).
وقال فيه ابن حجر في التقریب (رقم: ٩٦٩): ((صدوق بخطي، من السادسة)).
(٦) هو أحمد بن الخضر بن أحمد أبو الحسن النيسابوري الشافعي.
قال فيه الذهبي في السير (٥٠١/١٥): ((الحافظ الجوّد الفقيه ... من كبار الأئمة ... مات في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وثلاثمائة)).
(٧) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص: ٣٨).
(٨) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران، أبو محمد الكوفي ثم المكّي.

قال القاضي عياض: ((قال أبو طالب المكي: كان مالك -رحمه الله- أبعد الناس من مذاهب المتكلمين، وأشدّهم بُغْضاً للعراقيين، وألزمهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين، قال سفيان بن عيينة: سألت رجلاً مالكا فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى يا أبا عبد الله؟، فسكت مالك ملياً حتى علاه الرخضاء، وما رأينا مالكا وجد من شيء وجدته من مقالته، وجعل الناس ينظرون ما يأمر به، ثم سُري عنه فقال: ((الاستواء منه معلوم، والكيف منه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، والإيمان به واجب، وإنني لأظنك ضالاً، أخرجوه)) .

فناداه الرجل: يا أبا عبد الله، والله الذي لا إله إلا هو، لقد سألت عن هذه المسألة أهل البصرة والكوفة والعراق، فلم أجد أحداً وُفق لما وُفقت له ((^(١))).

٦ . رواية محمد بن النعمان بن عبد السلام التيمي^(٢).

قال أبو الشيخ الأنصاري في كتابه طبقات المحدثين: حدثنا عبد الرحمن بن الفيض^(٣)، قال: ثنا هارون بن سليمان^(٤)، قال: سمعت محمد بن النعمان بن عبد السلام يقول: ((أتى رجل مالك بن أنس فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟، قال: فأطرق، وجعل يعرق، وجعلنا

قال فيه ابن حجر في التقریب (رقم: ٢٤٦٤): ((ثقة، حافظ، فقيه، إمام، حجة، إلا أنه تغيّر حفظه بآخرة، وكان ربما دلّس لكن عن الثقات)) .

وقال عنه الشافعي: ((لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز))
وأما اختلاطه فُروي عن يحيى بن سعيد القطان، وأن ذلك كان في سنة (١٩٧هـ) أي سنة وفاة سفيان، قال الذهبي متعجباً إياه: ((أنا أستبعد صحة هذا القول؛ فإن القطان مات في صفر سنة ثمان وتسعين، بُعيد قدوم الحجّاج بقليل، فمن الذي أخبره باختلاط سفيان؟، ومتى لحق يقول هذا القول؟!، فسفيان حجة مطلقاً بالإجماع من أرباب الصحاح))، كذا في تاريخ الإسلام وفيات (١٩١ . ٢٠٠هـ، ص: ١٩٩).

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٣٩/٢)، ونقله الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠٧/٨، ١٠٦).

(٢) أبو عبد الله التيمي الأصبهاني.

قال عنه أبو الشيخ الأنصاري: ((محدّث ابن محدّث، توفي سنة أربع وأربعين ومائتين، يحدّث عن وكيع وابن عيينة وحفص بن غياث وأبي بكر بن عياش وغيرهم، أحد الورعين، قليل الحديث، لم يحدّث إلا بالقليل))، طبقات المحدثين بأصبهان (٢١١/٢).

وقال عنه الذهبي: ((شيخ أصبهان، وابن شيخها، وأبو شيخها عبد الله))، تاريخ الإسلام وفيات (٢٤١ . ٢٥٠هـ، ص: ٤٧٥).

(٣) هو عبد الرحمن بن الفيض بن سنده بن ظهر أبو الأسود، أحد الثقات الأصبهانيين، تاريخ الإسلام وفيات (٣٢١ . ٣٣٠هـ، ص: ٨٤).

(٤) هو هارون بن سليمان الخزار الأصبهاني، أحد الثقات، توفي سنة خمس، وقيل: ثلاث وستين ومائتين، أخبار أصبهان لأبي نعيم (٣٣٦/٢).

نتظر ما يأمر به، فرفع رأسه، فقال: ((الاستواء منه غير مجهول، والكيف منه غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً، أخرجوه من داري))^(١)، وإسناده جيد.

٧ . رواية عبد الله بن نافع^(٢).

قال الحافظ ابن عبد البر - رحمه الله -: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن^(٣)، قال: حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ابن مالك^(٤)، قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل^(٥)، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا سريج بن النعمان^(٦)، قال: حدّثنا عبد الله بن نافع، قال:

(١) طبقات المحدثين بأصبهان (٢/٢١٤).
 (٢) روى عن مالك رجلان بهذا الاسم:
 أحدهما: عبد الله بن نافع الصائغ (ت ٢٠٦هـ).
 والثاني: عبد الله بن نافع حفيد ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، ولذلك يُقال له: الزبيري، كما يُعرف بعبد الله بن نافع الصغير (ت ٢١٦هـ).
 ولم يتضح لي من خلال رواية ابن عبد البر هذه أيهما المراد، وقد قال الذهبي في السير (١٠/٣٧٢): ((وكثيراً ما تختلط روايتهم عند الفقهاء حتى لا علم عند أكثرهم بأتهما رجلان))، ونقل قبل ذلك عن ترتيب المدارك للقاضي عياض أنّ سحنوناً كان يرى وجوب بيانهما، وإن كانا ثقتين إمامين حتى لا تختلط روايتهما.
 قال: ((فإنّ الصائغ أكبر وأقدم وأثبت في مالك لطول صحبته له)).
 وقد قال الحافظ ابن حجر في التقريب في الصائغ: ((ثقة صحيح الكتاب في حفظه لين))، وقال في الزبيري: ((صدوق))

فليس في الأمر كبير إشكال؛ إذ حديث كل منهما لا ينزل عن درجة الحسن.
 (٣) عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، أبو محمد يعرف بابن الزيات، توفي سنة (٣٩٠هـ).
 انظر: جذوة المقتبس للحميدي (ص: ٢٥٢)، وبغية الملتبس للضبي (ص: ٣٣٢)، وفهرست ابن خیر (ص: ١٠٤، ١٠٢)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (ص: ١٥١١).
 (٤) أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك بن شبيب البغدادي، أبو بكر القطيعي، راوي مسند أحمد، قال فيه الدارقطني: ((ثقة زاهد قديم))، وتكلم فيه بأخرة، توفي سنة (٣٦٨هـ).
 انظر: السير للذهبي (١٦/٢١٢ - ٢١٣)، والمنهج للأحمد للعليمي (٢/٧٥ - ٥٨).
 (٥) عبد الله بن إمام السنة أحمد بن حنبل.
 قال فيه الذهبي في السير (١٣/٥١٦): ((الإمام الحافظ الناقد، محدّث بغداد أبو عبد الرحمن، ابن شيخ العصر أبي عبد الله ...))

وقال الخطيب في تاريخه (٩/٣٧٥): ((وكان ثقة ثباتاً فهاً))، توفي سنة (٢٩٠هـ).
 (٦) سريج بن النعمان بن مروان الجوهري اللؤلؤي، أبو الحسين، ويُقال أبو الحسن البغدادي. وثقه يحيى بن معين، والعجلي، وأبو داود، وغيرهم.
 وقال فيه ابن حجر: ((ثقة يهيم قليلاً))، كذا في التقريب، توفي سنة (٢١٧هـ).
 انظر: تهذيب الكمال للمزي (١٠/٢١٨).

قال مالك بن أنس: ((الله ﷻ في السماء وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه مكان، قال: وقيل لمالك: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» كيف استوى؟، فقال مالك -رحمه الله-: استواؤه معقول، وكيفيته مجهولة، وسؤالك عن هذا بدعة، وأراك رجل سوء))^(١).

٨ . رواية أيوب بن صالح المخزومي^(٢).

قال الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله-: وأخبرنا محمد بن عبد الملك^(٣)، قال: حدثنا عبد الله بن يونس^(٤)، قال: حدثنا بقي بن مخلد^(٥)، قال: حدثنا بكار بن عبد الله القرشي^(٦)... وساق روايته للأثر المتقدمة من طريق مهدي بن جعفر، ثم قال: قال بقي: وحدثنا أيوب بن صلاح^(٧) المخزومي بالرملة، قال: ((كنا عند مالك إذ جاءه عراقي فقال له: يا أبا عبد الله مسألة أريد أن أسألك عنها؟، فطأطأ مالك رأسه فقال له: يا أبا عبد الله «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» كيف

(١) التمهيد (١٣٨/٧). والمراد بقوله: ((الاستواء معقول)) أي: معقول المعنى كما في الروايات الأخرى، وكما تفيد الجملة التي بعده، ألا وهي قوله: ((وكيفيته مجهولة)).

(٢) أيوب بن صالح بن سلمة الحراني المخزومي أبو سليمان المدني، سكن الرملة، وروى عن مالك الموطأ، ضعفه ابن معين، وقال فيه ابن عدي: ((روى عن مالك ما لم يتابعه عليه أحد))، لسان الميزان (٤٨٣/١)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (١٣١/١)، المغني في الضعفاء للذهبي (١٥٥/١).

(٣) محمد بن عبد الملك بن ضيفون اللخمي القرطبي الحداد، أبو عبد الله. قال فيه ابن الفرضي: ((كان رجلاً صالحاً أحد العدول، وكتب الناس عنه، وعلت سنه فاضطرب في أشياء فُرئت عليه وليست مما سمع، ولا كان من أهل الضبط))، توفي سنة (٤٩٢هـ).

انظر: تاريخ العلماء لابن الفرضي (١١٠/٢)، والسير للذهبي (٥٦/١٧)، ولسان الميزان لابن حجر (٢٦٧/٥)، وقد تحرف في مطبوعة اللسان إلى (محمد بن عبد الملك بن صفوان!).

(٤) عبد الله بن يونس بن محمد بن عبيد الله المرادي أبو محمد، يُعرف بالقريري، من قبيلة الأندلس. هو صاحب بقي بن مخلد، سمع منه مصنف ابن أبي شيبة، توفي سنة (٣٣٠هـ).

انظر: تاريخ العلماء لابن الفرضي (٢٦٥/١)، وتوضيح المشتبه لابن ناصر الدين (١٧٨/٧).

(٥) بقي بن مخلد بن يزيد، أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي. قال ابن الفرضي: ((كان بقي ورعاً فاضلاً زاهداً)).

وقال الذهبي: ((الإمام القدوة شيخ الإسلام ... الحافظ، صاحب التفسير والمسنند اللذين لا نظير لهما))، توفي سنة (٢٧٦هـ).

انظر: تاريخ العلماء (١٠٧/١ - ١٠٩)، وسير أعلام النبلاء (٢٨٥/١٣).

(٦) بكار بن عبد الله بن بسر الدمشقي القرشي.

قال فيه أبو حاتم في الجرح والتعديل (٤١٠/٢): ((هو صدوق)).

(٧) كذا في التمهيد، وهو خطأ.

استوى؟، قال: سألت عن غير مجهول، وتكلمت في غير معقول، إنك امرؤ سوء، أخرجوه، فأخذوا بضبعه فأخرجوه))^(١).

٩ . رواية بشار الخفاف الشيباني^(٢).

قال ابن ماجه في التفسير: حدثنا علي بن سعيد^(٣)، قال: حدثنا بشار الخفاف أو غيره، قال: ((كنت عند مالك بن أنس فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾، كيف استوى؟، وذكره، كذا في تهذيب الكمال^(٤).

وقال أبو المظفر السمعاني في تفسيره: ((وقد رووا عن جعفر بن عبد الله وبشر الخفاف^(٥) قالاً: كُنا عند مالك بن أنس فأتاه رجل فسأله عن قوله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾، كيف استوى؟ فأطرق مالك ملياً، وعلاه الرخصاء، ثم قال: ((كيف غير معقول، الاستواء مجهول^(٦)، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالاً، ثم أمر به فأخرج))^(٧)، من غير شك في رواية بشار الخفاف.

١٠ . رواية سحنون^(٨) عن بعض أصحاب مالك.

قال ابن رشد في البيان والتحصيل: قال سحنون: أخبرني بعض أصحاب مالك أنه كان قاعداً عند مالك فأتاه رجل فقال: ((يا أبا عبد الله مسألة؟، فسكت عنه ثم قال له: مسألة؟، فسكت عنه، ثم عاد فرفع إليه مالك رأسه كالمجيب له، فقال السائل: يا أبا عبد الله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ

(١) التمهيد (١٥١/٧).

(٢) هو بشار بن موسى الخفاف الشيباني أبو عثمان، روى عن مالك، وروى عنه علي بن سعيد النسوي، تكلم فيه البخاري ويحيى بن معين، وأبو داود، والنسائي وعلي بن المديني، وغيرهم.

قال أحمد بن يحيى بن الجارود: سمعت علياً [يعني: ابن المديني] وذكر بشار بن موسى [الخفاف] فقال: ما كان يبغداد أصلب منه في السنة، وما أحسن رأي أبي عبد الله فيه، يعني أحمد بن حنبل، انظر: تهذيب الكمال (٤/٨٥ - ٩٠).

(٣) هو علي بن سعيد النسوي أو النسائي، قال في التقريب: ((صدوق صاحب حديث)).

(٤) (٩٠/٤)، و(٤٤٩/٢٠).

(٥) كذا، ولعله مصحّف من ((بشار)).

(٦) كذا في المصدر المنقول عن الصواب ((الاستواء غير مجهول)).

(٧) تفسير السمعاني (٣/٣٢٠).

(٨) سحنون: هو الإمام العلامة فقيه المغرب، أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان التنوخي، قاضي القيروان، وصاحب المدونة.

سمع من ابن عيينة، ولازم تلاميذ مالك: ابن وهب وابن القاسم وأشهب، حتى صار من نظرائهم، توفي سنة (٢٤٠هـ). انظر: السير للذهبي (١٢/٦٣ - ٦٩).

اسْتَوَى ﴿﴾، كيف كان استواؤه؟ فطأطأ مالك رأسه ساعة ثم رفعه، فقال: ((سألت عن غير مجهول، وتكلمت في غير معقول، ولا أراك إلاّ امرأ سوء، أخرجوه))^(١).

فهذا جملة ما وقفت عليه من طرق لهذا الأثر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس -رحمه الله-، وبعض طرقه صحيحة ثابتة، وبعضها لا يخلو من مقال، إلا أنها يشد بعضها بعضاً، ويشهد بعضها لبعض، والأثر ثابت بلا ريب بمجموع هذه الطرق، ولذا اعتمده أهل العلم، وصححه غير واحد، وقد تقدّم الإشارة إلى بعض من صحّحه، ولا يُعرف أحدٌ منهم ضعفه، وسيأتي في مبحث لاحق نقل كلام أهل العلم في التنويه به، والثناء عليه، وتلقيهم له بالقبول والاستحسان.

(١) البيان والتحصيل (١٦/٣٦٧ - ٣٦٨).

المبحث الثاني: ذكر الشواهد على هذا الأثر من الكتاب والسنة

لقد تضمّن هذا الأثر العظيم جملاً أربعاً وهي:

١ . الاستواء غير مجهول.

٢ . والكيف غير معقول.

٣ . والإيمان به واجب.

٤ . والسؤال عنه بدعة.

وهي جمل صحيحة المعنى عظيمة الدلالة، لكلّ جملة منها شواهدا كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسيمرُّ معنا في ثنايا هذا المبحث العديد من النصوص التي تشهد لصحة كلّ جملة من هذه الجمل، ولنقف هنا مع كلّ جملة من هذه الجمل لذكر بعض الشواهد عليها من القرآن والسنة.

أولاً: أما قوله: ((الاستواء غير مجهول)) فالمراد به أنّ الاستواء معلوم المعنى؛ لأنّ الله قد خاطبنا في القرآن الكريم بكلام عربيّ مبين، قال الله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾^(٥)، فهو - سبحانه - أنزل القرآن الكريم بلسان عربيّ مبين؛ ((لأنّ لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات))^(٦)، وليفهم المخاطبون به كلام الله وليعقلوا خطابيه ويحيطوا بمعانيه كما قال - سبحانه -: ﴿ وَكُوجَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لِقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾^(٧) فمن لطف الله بخلقه أنه يرسل إليهم الرسل منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، قال

(١) سورة الشعراء، الآية: (١٩٥).

(٢) سورة يوسف، الآية: (٢).

(٣) سورة فصلت، الآية: (٣).

(٤) سورة الأحقاف، الآية: (١٢).

(٥) سورة الزمر، الآية: (٢٨).

(٦) تفسير ابن كثير (٢٩٤/٤).

(٧) سورة فصلت، الآية: (٤٤).

تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۗ ﴾^(١)، وفي المسند من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَمْ يبعثَ اللهُ ﷻ نبيًّا إِلَّا بلغة قومه))^(٢).

والقرآن الكريم شأنه كذلك، فهو بلسان عربي مبين، يفهمه المخاطبون به، فمدلولاته ظاهرة، ومعانيه واضحة، وقد فهمه المخاطبون به وعقلوا معناه، ولا سيما في أشرف مقاصده وأعظم أبوابه وهو توحيد الله ﷻ، ((ومن المعلوم أنَّ الصحابة سمعوا القرآن والسنة من النبي ﷺ، وقرأوه وأقرأوه من بعدهم، وتكلم العلماء في معانيه وتفسيره، ومعاني الحديث وتفسيره، وما يتعلق بالأحكام وما لا يتعلق بها، وهم مجتمعون على غالب معاني القرآن والحديث، ولم يتنازعا إلا في قليل من كثير، لا سيما القرون الأولى، فإنَّ النزاع بينهم كان قليلاً جداً بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه، وكان النزاع في التابعين أكثر، وكلما تأخر الزمان كثر النزاع وحدث من الاختلاف بين المتأخرين ما لم يكن في الذين قبلهم، فإنَّ القرآن تضمن الأمر بأوامر ظاهرة وباطنة، والنهي عن مناهٍ ظاهرة وباطنة، ورسول الله ﷺ بين مقادير الصلوات ومواقيتها وصفاتها، والزكوات ونصبتها ومقاديرها، وكذلك سائر العبادات، وعامة هذه الأمور نقلتها الأمة نقلاً عاماً متواتراً خلفاً عن سلف، وحصل العلم الضروري للخلق بذلك كما حصل لهم العلم الضروري بأنه بلغهم ألفاظها، وأنه قاتل المشركين وأهل الكتاب، وأنه بعث بمكة وهاجر إلى المدينة، وأنه دعا الأمة إلى أن شهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وأخبرهم أنَّ هذا القرآن كلام الله الذي تكلم به لا كلامه ولا كلام مخلوق، وأنه ليس قول البشر، وأنه علمهم أنَّ ربه فوق سمواته على عرشه، وأنَّ المَلَك نزل من عنده إليه، ثم يعرج إلى ربه، وأنَّ ربه يسمع ويرى ويتكلم وينادي ويحب ويبغض ويرضى ويغضب، وأنَّ له يدين ووجهاً، وأنه يعلم السرِّ وأخفى، فلا يخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض، وأنه يقيمهم من قبورهم أحياء بعدما مرقهم البلى إلى دار النعيم أو إلى الجحيم))^(٣).

ثمَّ ((إنَّ الله - سبحانه - وصف نفسه بأنه بين لعباده غاية البيان، وأمر رسوله بالبيان، وأخبر أنه أنزل عليه كتابه ليبيِّن للناس، ولهذا قال الزهري: ((من الله البيان، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم))^(٤)، فهذا البيان الذي تكفل به - سبحانه -، وأمر به رسوله، إما أن يكون المراد به بيان

(١) سورة إبراهيم، الآية: (٤).

(٢) المسند (١٥٨/٥). قال الهيثمي في المجمع (٤٣/٧): ((رجاله رجال الصحيح، إلا أنَّ مجاهدًا لم يسمع من أبي ذر))، لكن يشهد له القرآن.

(٣) الصواعق المرسله لابن القيم (٦٥٣/٢ - ٦٥٤).

(٤) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً (٥٠٣/١٣). الفتح، ووصله الحميدي في النوادر، والخطيب البغدادي وابن أبي

اللفظ وحده، أو المعنى وحده، أو اللفظ والمعنى جميعاً، ولا يجوز أن يكون المراد به بيان اللفظ دون المعنى، فإنّ هذا لا فائدة فيه، ولا يحصل به مقصود الرسالة، وبيان المعنى وحده بدون دليله وهو اللفظ الدال عليه ممتنع، فعلم قطعاً أنّ المراد ببيان اللفظ والمعنى.

والله تعالى أنزل كتابه -ألفاظه ومعانيه-، وأرسل رسوله ليبيّن اللفظ والمعنى، فكما أنّا نقطع ونتيقن أنّه بيّن اللفظ، فكذلك نقطع ونتيقن أنّه بيّن المعنى، بل كانت عنايته ببيان المعنى أشدّ من عنايته ببيان اللفظ، وهذا هو الذي ينبغي، فإنّ المعنى هو المقصود، وأمّا اللفظ فوسيلة إليه ودليل عليه، فكيف تكون عنايته بالوسيلة أهمّ من عنايته بالمقصود؟، وكيف نتيقن بيانه للوسيلة ولا نتيقن بيانه للمقصود؟، وهل هذا إلا من أبين المحال؟

فإنّ جاز عليه ألاّ يبيّن المراد من ألفاظ القرآن، جاز عليه ألاّ يبيّن بعض ألفاظه، فلو كان المراد منها خلاف حقائقها وظواهرها ومدلولاتها وقد كتبه عن الأمة، ولم يبيّن لها كان ذلك قدحاً في رسالته وعصمته، وفتحاً للزنادقة والملاحدة من الرافضة وإخوانهم باب كتمان بعض ما أنزل عليه، وهذا منافٍ للإيمان به وبرسالته ((^(١)).

وقد أخبر الله - سبحانه وتعالى - أنّه أكمل به الدّين وأتمّ به النعمة، وأمره أن يبلغ البلاغ المبين كما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ^(٢)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ^(٣).

((ومحال مع هذا أن يدع أهم ما خلق له الخلق وأرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب، ونصبت عليه القبلة، وأسست عليه الملة، وهو باب الإيمان به ومعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ملتبساً مشتبهاً حقّه بباطله، لم يتكلّم فيه بما هو الحق، بل تكلّم بما ظاهره الباطل، والحق في إخراجها عن ظاهره، وكيف يكون أفضل الرسل وأجلّ الكتب غير وافٍ بتعريف ذلك على أتمّ الوجوه، مبين له بأكمل البيان، موضح له غاية الإيضاح، مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته، ومع كونه أفضل ما اكتسبته النفوس، وأجلّ ما حصلته القلوب، ومن أبين المحال أن يكون أفضل الرسل ﷺ قد علّم أمته آداب البول، قبله وبعده ومعه، وآداب الوطء وآداب الطعام والشراب، ويترك أن

عاصم في كتاب الأدب، كما في فتح الباري لابن حجر.

(١) الصواعق المرسلّة لابن القيم (٢/٧٣٧ - ٧٣٨).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٦٧).

يعلّمهم ما يقولونه بألسنتهم وتعتقده قلوبهم في ربهم ومعبودهم الذي معرفته غاية المعارف ، والوصول إليه أجلّ المطالب، وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل، ويخبرهم فيه بما ظاهره باطل وإلحاد، ويحيلهم في فهم ما أخبرهم به على مستكرهات التأويلات، ومستكرات المجازات ، ثم يحيلهم في معرفة الحق على ما تحكم به عقولهم وتوجيه آراؤهم، هذا وهو القائل: ((تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))^(١)، وهو القائل: ((ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شرّ ما يعلمه لهم))^(٢)، وقال أبو ذر: ((لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلّب جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً))^(٣)، وقال عمر بن الخطاب : ((قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه))، ذكره البخاري...^(٤).

فكيف يتوهم من لله ولرسوله ولدينه في قلبه وقار أن يكون رسول الله ﷺ قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم ولم يتكلم فيه بالصواب، بل تكلم بما ظاهره خلاف الصواب؟ ، بل لا يتم الإيمان إلا باعتقاد أنّ بيان ذلك قد وقع من الرسول على أتمّ الوجوه، وأوضحه غاية الإيضاح، ولم يدع بعده لقائل مقالاً ولا لمتأول تأويلاً، ثم من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها وأعلمها وأسبقها إلى كلّ فضل وهدى ومعرفة قصرُوا في هذا الباب فجفوا عنه أو تجاوزوا فغلوا فيه)^(٥).

ثم إنّ الله - سبحانه وتعالى - قد حثّ عباده على تدبّر القرآن وتعقّل آياته وفهم معانيه في مواطن عديدة في القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾^(٨)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾^(٩)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(١٠)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

(١) رواه ابن ماجه (١٥/١)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم: ٤٩، ٤٨). وقال الألباني: ((حديث صحيح)).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١٤٧٢/٣).

(٣) رواه الإمام أحمد (١٥٣، ١٦٢/٥).

(٤) (٢٨٦/٦ . الفتح).

(٥) الصواعق المرسلّة (١٥٧/١ - ١٦٠)، وانظر: أول الرسالة الحموية لابن تيمية (ص: ٧).

(٦) سورة محمد، الآية: (٢٤).

(٧) سورة النساء، الآية: (٨٢).

(٨) سورة ص، الآية: (٢٩).

(٩) سورة الزمر، الآية: (٢٧).

(١٠) سورة يوسف، الآية: (٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: ((فحُضَّ عَلَى تَدْبِيرِهِ وَفَقْهِهِ وَعَقْلِهِ وَالتَّذَكُّرِ بِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَلَمْ يَسْتَنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً؛ بَلْ نَصُوصٌ مُتَعَدِّدَةٌ تَصْرَحُ بِالْعُمُومِ فِيهِ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَفْيَ الْاِخْتِلَافِ عَنْهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَدْبِيرِهِ كُلِّهِ، وَإِلَّا فَتَدَبَّرَ بَعْضُهُ لَا يُوْجِبُ الْحُكْمَ بِنَفْيِ مُخَالَفِهِ مَا لَمْ يَتَدَبَّرْ لِمَا تَدَبَّرَ.

وقال علي رضي الله عنه لما قيل له: هل ترك عندكم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً؟، فقال: ((لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتیه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة))^(١). فأخبر أن الفهم فيه مختلف في الأمة، والفهم أخص من العلم والحكم، قال الله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾^(٢)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((رُبَّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ))^(٣)، وقال: ((بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))^(٤)، وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن آيات الصفات وغيرها، وفسروها بما يوافق دلالتها وبيانها، ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة توافق القرآن، وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم مثل عبد الله بن مسعود الذي كان يقول: ((لو أعلم أعلم بكتاب الله مني تبلغه آباط الإبل لأيتته))^(٥)، وعبد الله بن عباس الذي دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وهو حبر الأمة وترجمان القرآن كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات، ورواية لها عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا، وما في التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين، بل وثالثهما في عليّة التابعين من جنسهم أو قريب منهم، ومثلهما في جلالته جلاله أصحاب زيد بن ثابت؛ لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به بل أخذوا عن غيره مثل عمر وابن عمر وابن عباس، ولو كان معاني هذه الآيات منفيّاً ومسكوتاً عنه لم يكن ربانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاماً فيه.

ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية، قال أبو عبد الرحمن السلمي: ((حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات

(١) رواه البخاري (١٦٧/٦ - الفتح)، ومسلم (٨٧/١).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٧٩).

(٣) رواه البخاري (٥٧٣/٣ - ٥٧٤ - الفتح).

(٤) رواه البخاري (٤٩٦/٦ - الفتح).

(٥) رواه البخاري (٤٧/٩ - الفتح)، ومسلم (١٩١٢/٤ - ١٩١٣).

لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل^(١)، وكذلك الأئمة كانوا إذا سُئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه بل يشبتون المعنى وينفون الكيفية كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟، فقال: ((الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))، وكذلك ربيعة قبله، وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول، فليس في أهل السنة من ينكره ...))^(٢).

فهذه هي طريقة أئمة السلف أهل السنة والجماعة في هذا الباب وفي جميع أبواب الدين، وقد لخص الإمام ابن القيم -رحمه الله- طريقتهم هذه بقوله: ((كان أئمة السلف وأتباعهم يذكرون الآيات في هذا الباب، ثم يُتبعونها بالأحاديث الموافقة لها، كما فعل البخاري ومن قبله ومن بعده من المصنفين في السنة، فإنَّ الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهما يحتجون على صحة ما تضمنته أحاديث النزول والرؤية والتكليم والوجه واليدين والإتيان والمجيء بما في القرآن، ويشبتون اتفاق دلالة القرآن والسنة عليها، وأنهما من مشكاة واحدة، ولا ينكر ذلك من له أدنى معرفة وإيمان، وإنما يحسن الاستدلال على معاني القرآن بما رواه الثقات عن الرسول ﷺ وورثة الأنبياء، ثم يتبعون ذلك بما قاله الصحابة والتابعون أئمة الهدى.

وهل يخفى على ذي عقل سليم أنَّ تفسير القرآن بهذه الطريق خير مما هو مأخوذ عن أئمة الضلال وشيوخ التجهم والاعتزال كالمريسي والجبائي والنظام والعلّاف وأضرابهم من أهل التفرق والاختلاف الذين أحدثوا في الإسلام ضلالات وبدعاً، وفرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، وتقطّعوا أمرهم بينهم كلُّ حزب بما لديهم فرحون.

فإذا لم يجز تفسير القرآن وإثبات ما دلّ عليه، وحصول العلم واليقين بسنن رسول الله ﷺ الصحيحة الثابتة، وكلام الصحابة وتابعيهم، أفيجوز أن يرجع في معاني القرآن إلى تحريفات جهم وشيعته، وتأويلات العلّاف والنظام والجبائي والمريسي وعبد الجبار وأتباعهم من كلِّ أعمى أعجمي القلب واللسان، بعيد عن السنة والقرآن، مغمور عند أهل العلم والإيمان؟))^(٣).

ويمكن أن نلخص ما تقدّم في ستة وجوه ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، فيها أوضح دلالة على أن المعنى معلوم ومطلوب من العباد العلم به:

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٦٠/١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٠٧/١٣ - ٣٠٩).

(٣) مختصر الصواعق (ص: ٤٥٦).

((أحدها: أن العادة المَطْرَدَة التي جبل الله عليها بني آدم توجب عنايتهم بالقرآن . المنزل عليهم . لفظاً ومعنى؛ بل أن يكون عنايتهم بالمعنى أوكد، فإنه قد علم أنه من قرأ كتاباً في الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك، فإنه لا بد أن يكون راغباً في فهمه، وتصوّر معانيه، فكيف بمن قرؤوا كتاب الله تعالى المنزل إليهم، الذي به هداهم الله، وبه عرفهم الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والرشاد والغي؟! .

فمن المعلوم أن رغبتهم في فهمه وتصوّر معانيه أعظم الرغبات ؛ بل إذا سمع المتعلم من العالم حديثاً فإنه يرغب في فهمه، فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلّغ عنه؟!، بل ومن المعلوم أن رغبة الرسول ﷺ في تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه، فإن معرفة الحروف بدون المعاني لا تحصل المقصود؛ إذ اللفظ إنما يُراد للمعنى .

الوجه الثاني: إن الله سبحانه وتعالى قد حصّهم على تدبره وتعقله واتباعه في غير موضع، كما قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(٤) .

فإذا كان قد حضّ الكفار والمنافقين على تدبره، علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها، فكيف لا يكون ذلك ممكناً للمؤمنين، وهذا يبيّن أن معانيه كانت معروفة بينة لهم .
الوجه الثالث: أنه قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٦)، فبيّن أنه أنزله عربياً؛ لأن يعقلوا، والعقل لا يكون إلا مع العلم بمعانيه .
الوجه الرابع: أنه ذم من لا يفهمه فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾^(٧) .

(١) سورة ص، الآية: (٢٩) .

(٢) سورة محمد، الآية: (٢٤) .

(٣) سورة المؤمنون، الآية: (٦٨) .

(٤) سورة النساء، الآية: (٨٢) .

(٥) سورة يوسف، الآية: (٢) .

(٦) سورة الزخرف، الآية: (٣) .

(٧) سورة الإسراء، الآيات: (٤٦، ٤٥) .

الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا»^(١)، فلو كان المؤمنون لا يفقهونه أيضاً لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيما ذمهم الله تعالى به.

الوجه الخامس: أنه ذم من لم يكن حظّه من السماع إلا سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه، فقال تعالى: ﴿ وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ سَمْعُونَ أَوْ يَعْلَمُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ سَمِعَ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾^(٤)، وأمثلة ذلك.

وهؤلاء المنافقون سمعوا صوت الرسول ﷺ ولم يفهموا، وقالوا: ماذا قال آنفا؟ أي: الساعة، وهذا كلام من لم يفقه قوله، فقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾. فمن جعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان غير عالمين بمعاني القرآن، جعلهم بمنزلة الكفار والمنافقين فيما ذمهم الله تعالى عليه.

الوجه السادس: أن الصحابة -رضي الله عنهم فسروا للتابعين القرآن، كما قال مجاهد: ((عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أفف عند كل آية وأسأله عنها))^(٥). ولهذا قال سفيان الثوري: ((إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به)) . وكان ابن مسعود يقول: ((لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته))^(٦). وكل واحد من أصحاب ابن مسعود وابن عباس نقل عنه من التفسير ما لا يحصيه إلا الله، والنقول بذلك عن الصحابة والتابعين ثابتة معروفة عند أهل العلم بها))^(٧).

ثانياً: قوله: ((والكيف غير معقول)) فإن العقول لا يمكن لها أن تدرك كيفية صفات البارئ سبحانه -، وقد نصّ الله على ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾^(٨).

(١) سورة النساء، الآية: (٧٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٧١).

(٣) سورة الفرقان، الآية: (٤٤).

(٤) سورة محمد، الآية: (١٦).

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٢٧٩ - ٢٨٠) ومن طريقه الذهبي في السير (٤/٤٥٦ - ٤٥٧).

(٦) رواه البخاري (٩/٤٧ - الفتح)، ومسلم (٤/١٩١٢ - ١٩١٣).

(٧) مجموع الفتاوى (٥/١٥٧ - ١٥٩).

(٨) سورة طه، الآية: (١١٠).

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: ((فقوله: ﴿يَحِيطُونَ بِهِ﴾ فعل مضارع والفعل الصناعي الذي يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضي ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن كما قال ابن مالك في الخلاصة^(١):

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن

وقد حرّر علماء البلاغة في مبحث الاستعارة التبعية أنه ينحل عن مصدر وزمن ونسبة، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً، فـ"يحيطون" في مفهومها الإحاطة، فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل فيكون معه كالنكرة المبنية على الفتح، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري برب السموات والأرض، فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كفيّتها، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين، فلا يشكل عليكم بعد هذا صفة نزول ولا مجيء ولا صفة يد ولا أصابع ولا عجب ولا ضحك؛ لأنّ هذه الصفات كلّها من باب واحد، فما وصف الله به نفسه منها فهو حق، وهو لائق بكماله وجلاله لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، وما وُصف به المخلوقون منها فهو حق مناسب لعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وهذا الكلام الكثير أوضحه الله في كلمتين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ تنزيه بلا تعطيل، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إيمان بلا تمثيل، فيجب من أول الآية وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ التنزيه الكامل الذي ليس فيه تعطيل، ويلزم من قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإيمان بجميع الصفات الذي ليس فيه تمثيل، فأول الآية وآخرها إيمان، ومن عمل بالتنزيه الذي في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ والإيمان الذي في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وقطع النظر عن إدراك الكنه والكيفية المنصوص في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ خرج سالماً ((^(٢))).

وروى أحمد وأبو داود وغيرهما عن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه-: ((أنّ النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات))^(٣).

قال عيسى بن يونس: ((والأغلوطات ما لا يحتاج إليه من كيف وكيف))^(٤).

(١) انظر: شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك (١/٥٥٧).

(٢) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشنقيطي (ص: ٢٥، ٢٤).

(٣) المسند (٥/٤٣٥)، وأبو داود (رقم: ٣٦٥٦)، وقال الألباني . حفظه الله . في تخريج المصاحح (١/٨١): ((وسنده ضعيف، فيه عبد الله بن سعد وهو مجهول - كما قال الذهبي -)).

(٤) رواه ابن بطة في الإبانة (١/٤٠١).

وقال الخطابي: ((وفيه كراهية التعمق فيما لا حاجة للإنسان إليه من المسائل ووجوب التوقف عما لا علم للمسؤول به))^(١).

والله - تبارك وتعالى - لم يكلف عباده ولم يأمرهم بالبحث عن كيفية صفاته ولا أراد منهم ذلك، بل لم يجعل لهم سبيلاً إليه، ((ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ قالوا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وكذلك قال ربعة شيخ مالك قبله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومن الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الإيمان.

فبيّن أنّ الاستواء معلوم، وأنّ كيفية ذلك مجهول، ومثل هذا يوجد كثيراً في كلام السلف والأئمة، ينفون علم العباد بكيفية صفات الله، وأنّه لا يعلم كيف الله إلا الله، فلا يعلم ما هو إلا هو، وقد قال النبي ﷺ: ((لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك))، وهذا في صحيح مسلم وغيره^(٢)، وقال في الحديث الآخر: ((اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك))، وهذا الحديث في المسند وصحيح أبي حاتم^(٣)، وقد أخبر فيه أنّ الله من الأسماء ما استأثر به في علم الغيب عنده^(٤).

بل إنّ المخلوق عاجز عن إدراك كنه كثير من المخلوقات وكيفيتها، فلأن يكون عن إدراك كنه صفات الباري وكيفيتها أعجز من باب أولى، قال رُسته: سمعتُ ابن مهدي يقول لفتى من ولد الأمير جعفر بن سليمان: ((بلغني أنّك تتكلم في الرب، وتصفه وتشبهه. قال: نعم، نظرنا فلم نر من خلق الله شيئاً أحسن من الإنسان، فأخذ يتكلم في الصفة، والقامة، فقال له: زويدك يا بني حتى نتكلم أول شيء في المخلوق، فإن عجزنا عنه فنحن عن الخالق أعجز، أخبرني عمّا حدثني شعبة، عن الشيباني، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾^(٥) قال: ((رأى جبريل له ستمائة جناح))^(٦)، فبقي الغلام ينظر، فقال: أنا أهوّن عليك صف لي خلقاً له ثلاثة

(١) معالم السنن (٥/٢٥٠).

(٢) صحيح مسلم (١/٣٥٢).

(٣) رواه أحمد (١/٣٩١)، والحاكم (١/٥٠٩)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/١٣٦): ((رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري... ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير الجهني، وقد وثقه ابن حبان)).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/٥٨).

(٥) سورة النجم، الآية: (١٨).

(٦) رواه البخاري (٦/٣١٣ - الفتح)، ومسلم (١/١٥٨) من طريق زر بن حبيش، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

أجنحة، وركب الجناح الثالث منه موضعاً حتى أعلم، قال: يا أبا سعيد عجزنا عن صفة المخلوق، فأشهدك أنني قد عجزتُ ورجعتُ))^(١).

وقال أبو يحيى زكريا الساجي: حدثنا المزني: قال: قلت: ((إن كان أحدٌ يخرج ما في ضميري، وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي، فصرتُ إليه وهو في مسجد مصر، فلما جنوت بين يديه قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد، فعلمت أن أحداً لا يعلم علمك، فما الذي عندك؟، فغضب، ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم، قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون، أبلغك أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟، قلت: لا، قال: هل تكلم فيه الصحابة؟، قلت: لا، قال: تدري كم نجماً في السماء؟، قلت: لا، قال: فكوكبٌ منها تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، مم خلق؟، قلت: لا، قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه، تتكلم في علم خالقه؟!، ثم سألتني عن مسألة في الوضوء، فأخطأتُ فيها، ففرعها على أربعة أوجه، فلم أصب في شيء منه، فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات، تدع علمه، وتتكلف علم الخالق، إذا هجس في ضميرك ذلك، فارجع إلى الله وإلى قوله تعالى: ﴿ وَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية^(٢)، فاستدل بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك، قال: فثبت))^(٣).

وقال القاضي أبو يعلى في كتابه إبطال التأويلات: ((والله إننا لعاجزون كالأول حائرون باهتون في حد الروح التي فينا، وكيف تعرج كل ليلة إذا توقاها بارئها، وكيف يرسلها؟، وكيف تستقل بعد الموت؟، وكيف حياة الشهيد المرزوق عند ربّه بعد قتله؟، وكيف حياة النبيين الآن؟، وكيف شاهد النبي ﷺ أخاه موسى يصلي في قبره قائماً، ثم رآه في السماء السادسة وحاوره، وأشار عليه بمراجعة رب العالمين، وطلب التخفيف منه على أمته؟، وكيف ناظر موسى أباه آدم، ووجه آدم بالقدر السابق، وبأن اللوم بعد التوبة وقبولها لا فائدة فيه؟، وكذلك نعجز عن وصف هيأتنا في الجنة، ووصف الحور العين، فكيف بنا إذا انتقلنا إلى الملائكة وذواتهم وكيفياتها؟، وأن بعضهم يمكنه أن يلتقم الدنيا في لقمة مع رونقهم وحسنهم وصفاء جوهرهم النوراني، فالله أعلى وأعظم، وله المثل الأعلى والكمال المطلق، ولا مثل له أصلاً ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾))^(٤).

(١) رواه اللالكائي في الاعتقاد (٣/٥٣٠)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٩/١٩٧، ١٩٦)، واللفظ له.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: (١٦٤، ١٦٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/٣٢، ٣١).

(٤) نقله الذهبي، انظر: مختصر العلو (ص: ٢٧١، ٢٧٠).

ومما يعين المسلم على قطع الطمع عن إدراك كيفية صفات الباري - سبحانه -، اعتقاده وإيمانه بأن الله أكبر من كل شيء، فإذا اعتقد المسلم وآمن بأن الله - سبحانه وتعالى - أكبر من كل شيء، وأن كل شيء مهما كبر يصغر عند كبرياء الله وعظمته، علم من خلال ذلك علم اليقين أن كبرياء الربّ وعظمته وجلاله وجماله وسائر أوصافه ونعوته أمر لا يمكن أن تحيط به العقول أو تتصوره الأفهام أو تدركه الأبصار والأفكار، فالله أعظم وأعظم من ذلك، بل إنّ العقول والأفهام عاجزة عن أن تدرك كثيراً من مخلوقات الرب - تبارك وتعالى -، فكيف بالرب - سبحانه -.

ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ((بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كلّ سماء وسماءٍ خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسيّ خمسمائة عام، وبين الكرسيّ والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم))^(١).
وروي عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما السموات السبع في الكرسي إلاّ كدراهم سبعة ألقيت في ثرس))^(٢).

وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ما الكرسي في العرش إلاّ كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض))^(٣).

وليتأمل المسلم في عظم السماء بالنسبة إلى الأرض، وعظم الكرسيّ بالنسبة إلى السماء، وعظم العرش بالنسبة إلى الكرسيّ، فإنّ العقول عاجزة عن أن تدرك كمال هذه الأشياء أو أن تحيط بكنهها وكيفيتها، فكيف بالأمر إذاً في الخالق - سبحانه -، فهو أكبر وأجلّ من أن تعرف العقول كنه صفاته أو تدرك الأفهام كبريائه وعظمته، ولهذا جاءت السنّة بالنهي عن التفكّر في الله؛ لأنّ الأفكار والعقول لا تدرك كنه صفاته، فالله أكبر من ذلك، قال صلى الله عليه وسلم: ((تفكّروا في آلاء الله، ولا تفكّروا في الله صلى الله عليه وسلم))^(٤).

(١) رواه الدارمي في الرد على الجهمية (ص: ٢٦، ٢٧)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٨٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٩٠)، وغيرهم.
قال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٦): ((رجاله رجال الصحيح))، وصححه الذهبي في العلو (ص: ١٠٣ - مختصره)، وابن القيم في اجتماع الجيوش (ص: ١٠٠).
وقال الألباني . حفظه الله . في العلو: ((وسندهم جيّد)).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٣/ ١٠)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف، وزيد تابعي، فهو مرسل.
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٤٨ - ٦٤٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٠ - ٣٠١)، وغيرهما، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم: ١٠٩) بمجموع طرقه.

(٤) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (٣/ ٥٢٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٢١٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وإسناده ضعيف جداً، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن سلام، وأبي ذر، وابن عباس، وقد حسّنه الألباني

والتفكرُ المأمور به هنا كما يبين ابن القيم -رحمه الله- هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفةً ثالثة^(١)، وهذا يتضح بالمثال ، فالمسلم إذا أحضر في قلبه كبر هذه المخلوقات من سموات وأرض وكرسي وعرش ونحو ذلك، ثم أحضر في قلبه عجزه عن إدراك هذه الأشياء والإحاطة بها حصل له بذلك معرفة ثالثة وهي عظمة وكبرياء خالق هذه الأشياء وعجز العقول عن أن تدرك صفاته أو تحيط ببعوته -سبحانه-، يقول -سبحانه-: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ﴾^(٢) ، فالله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

ثالثاً: وأما قوله: ((والإيمان به واجب)) أي: الاستواء الذي وصف الرب به نفسه في كتابه، ووصفه به رسوله ﷺ في سنته، وهكذا الشأن في جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة، يجب الإيمان بها وإمرارها كما جاءت دون تعرض لها برداً أو تحريف أو تكيف أو تمثيل أو غير ذلك ، ولهذا ندب الله عباده وحثهم ورغبهم في مواطن كثيرة من القرآن الكريم على تعلم أسماء الرب وصفاته والإيمان بها ومعرفتها معرفةً صحيحة سليمة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ

في السلسلة الصحيحة (رقم: ١٧٨٨) بمجموع طرقه.

(١) مفتاح دار السعادة (ص: ١٨١).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (١١١).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).

(٤) سورة الإسراء، الآية: (١١٠).

(٥) سورة الحشر، الآيات: (٢٢ - ٢٤).

عِلْمًا^(١)، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢) وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣)، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٤)، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٥)، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٦)، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٧)، وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٨)، وقال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(٩)، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١٠)، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾^(١١)، وقال: ﴿فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١٢)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فهذه الآيات وما في معناها تدلّ أوضح الدلالة على أهمية الإيمان بأسماء الرب -تبارك وتعالى- الحسنی، وصفاته العظيمة، وأنّ ذلك من أصول الإيمان الراسخة، وأسسها العظيمة التي لا إيمان إلاّ بها، فمن جحدّها أو جحد شيئاً منها فليس بمؤمن، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يُكْفَرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، قال ذلك -سبحانه- في شأن من ينكر اسمه الرحمن، فكيف بمن ينكر أسماءه جميعها أو صفاته كلّها؟!.

وقال تعالى في شأن من شك في صفة واحدة: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَاِنْ يُصْبِرُوا فَالتَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْجِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾^(١٣)، فهؤلاء حصل

(١) سورة الطلاق، الآية: (١٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٠٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٣١).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٣٣).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٣٥).

(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٤٤).

(٧) سورة البقرة، الآية: (٢٦٧).

(٨) سورة المائدة، الآية: (٩٨).

(٩) سورة الأنفال، الآية: (٤٠).

(١٠) سورة البقرة، الآية: (١٩٤).

(١١) سورة البقرة، الآية: (٢٣٥).

(١٢) سورة محمد، الآية: (١٩).

(١٣) سورة فصلت، الآيات: (٢٢٠ - ٢٤٠).

منهم شك في صفة العلم، فظنوا أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالهم، فترتب على هذا الظن الفاسد والاعتقاد الباطل تردّيهم في مهاوي الباطل وأودية الضلال، فكيف إذا بمن عنده شك في جميع الصفات أو غالبها؟!.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ الآية: ((كان رجلاً من قريش وختن لهما من ثقيف أو رجلاً من ثقيف وختن لهما من قريش في بيت، فقال بعضهم: أترون أن الله يسمع حديثنا؟، قال بعضهم: يسمع بعضه، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله، فأنزلت: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ ﴾))^(١).

هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: عن ابن مسعود قال: ((اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟، وقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا؟، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾))^(٢).

وقال -تعالى- في شأن من لم ينزه الله عما نزه عنه نفسه مما لا يليق بجلاله وكماله - سبحانه- من النقائص والعيوب: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَكَدًّا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَكَدًّا ﴾^(٣) فهؤلاء غلطوا في صفة من صفات التنزيه . تنزيه الله عن الولد . فهو - سبحانه- الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وقد وصف الرب - سبحانه- غلطهم هذا بأنه ﴿ إِذَا ﴾ أي عظيمًا بالغ العظمة والخطورة، تكاد السموات على اتساعها أن تنفطر منه، والأرض على ترامي أطرافها أن تنشق والجبال على قوتها وصلابتها أن تخر هداً، كل ذلك بسبب نفوّه هؤلاء بهذه المقالة الجائرة، المشتملة على هذا الغلط الفاحش في صفة من صفات الرب سبحانه، فكيف الشأن بمن كثرت أغلاطهم في هذا الباب، وتنوع باطلهم فيه!؟

(١) صحيح البخاري (٨/٥٦١ . الفتح)، ومسلم (٤/٢١٤١).

(٢) سورة فصلت، الآية: (٢٢).

(٣) سورة مريم، الآية: (٨٨ . ٩٢).

وروى البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: ((سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟، فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: أخبروه أن الله يحبُّه))^(١).

وقد دلَّ هذا الحديث على عظم شأن الإيمان بصفات الرب ومحبتها والحرص على تعلُّمها، وأن ذلك سببٌ عظيمٌ من أسباب دخول الجنة ونيل رضى الرب -سبحانه-.

وروى عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك، فقال: ((ما فرَّق هؤلاء؟، يجدون رقةً عند محكمه ويهلكون عند متشابهه))^(٢).

وصفات الله الواردة في القرآن والسنة جميعها من المحكم، إلا أن هذا الرجل لقلّة علمه وضعف تفريقه اشتبه عليه الأمر فبادر إلى الاستنكار، فأنكر عليه ابن عباس -رضي الله عنهما- ذلك وأخبر أن هذا الاستنكار سبيل هلكه.

والشاهد من جميع ما تقدّم أن الإيمان بأسماء الرب وصفاته الواردة في كتابه وسنة نبيّه محمد ﷺ يجب الإيمان بها جميعها، والإيمان بها داخل في الإيمان بالله بل هو ركن من أركان الإيمان بالله؛ لأنّ الإيمان بالله يقوم على أركان ثلاثة هي: الإيمان بوحداية الله في ربوبيته، والإيمان بوحدايته في ألوهيته، والإيمان بوحدايته في أسمائه وصفاته^(٣).

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في مقدمة العقيدة الواسطية: ((ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأنّ الله -سبحانه- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٤)، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ..؛ لأنه -سبحانه- لا سمّي له ولا كفاء ولا ند له، ولا يقاس بخلقه -سبحانه وتعالى-، فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قياً وأحسن حديثاً من خلقه، ثم

(١) صحيح البخاري (٣٤٧/١٣ . الفتح)، وصحيح مسلم (٥٥٧/١).

(٢) المصنف (٤٢٣/١١)، وأورده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتابه التوحيد، وانظر شرحه في تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٧٨).

(٣) وقد أفردت في ذكر هذه الأقسام وأدلتها والردّ على من أنكرها من غلاة أهل الأهواء رسالة بعنوان: ((القول السديد في الردّ على من أنكر تقسيم التوحيد)) وهي مطبوعة.

(٤) سورة الشورى، الآية: (١١).

رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

وهو - سبحانه - قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ((.

رابعاً: وأما قوله: ((والسؤال عنه بدعة)) فلأنَّ السؤال عنه والبحث فيه أمرٌ لم يشرع للعباد، بل دلّت النصوص على عدم إمكان ذلك، وأنه لا سبيل إلى العلم به.

ولهذا فإنه من خاض فيه وبحث عن علمه يكون قد قال على الله بلا علم، وقد قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وهذا من أعظم المحرمات، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).
وقفاً ما ليس له به علم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٤).

وتقدّم بعقله القاصر بين يدي الله ورسوله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٥).

ثم إنه قد ورد في القرآن والسنة النهي عن الأسئلة عن الأمور المغيبة، وعن الأمور التي عفا الله عنها فلم يوجبها ولم يحرمها، وكذلك عن سؤال التعنت والأغلوطات، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾^(٦).

وقد ثبت في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((دعوني ما تركتكم، وإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))^(١).

(١) سورة الصفات، الآيات: (١٨٠ - ١٨٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٨٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٣٣).

(٤) سورة الإسراء، الآية: (٣٦).

(٥) سورة الحجرات، الآية: (١).

(٦) سورة المائدة، الآية: (١٠١).

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في شرح هذا الحديث: ((ومما يدخل في هذا الحديث السؤال عن كيفية صفات الباري؛ فإنَّ الأمر في الصفات كلّها كما قال الإمام مالك لمن سأله عن كيفية الاستواء على العرش؟، فقال: ((الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))، فمن سأل عن كيفية علم الله، أو كيفية خلقه وتدبيره، قيل له: فكما أنَّ ذات الله -تعالى- لا تشبهها الذوات، فصفاته لا تشبهها الصفات، فالخلق يعرفون الله ويعرفون ما تعرّف لهم به من صفاته وأفعاله، وأما كيفية ذلك، فلا يعلم تأويله إلاَّ الله ((٢)).

فهذه بعض الشواهد لقول الإمام مالك -رحمه الله- ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))، والمقصود هنا هو الإشارة إلى بعض الشواهد فقط، وإلاَّ فإنَّ استقصاء ذلك يطول.

(١) رواه البخاري (٢٥١/١٣ . الفتح)، ومسلم (٩٧٥/٢).

(٢) بحجة قلوب الأبرار (ص: ٢١٩).

المبحث الثالث: ذكرُ نظائر هذا الأثر مما جاء عن السلف الصالح

إنَّ لقول الإمام مالك -رحمه الله- هذا نظائر كثيرة جداً عند أئمة السلف وأهل العلم، وسوف أتناول في هذا المبحث -إن شاء الله- ذكر بعض نظائره، لكن يحسن قبل ذلك الإشارة إلى أنَّ هذا اللفظ المنقول عن مالك والمشهور عنه -رحمه الله- قد سبقه إليه شيخه ربعة الرأي، ويروى قبل ذلك عن أم سلمة زوج النبي ﷺ لكن من وجه لا يثبت عنها -رضي الله عنها-.

روى اللالكائي في شرح الاعتقاد، والصابوني في عقيدة السلف، وابن قدامة في إثبات صفة العلوّ، والذهبي في العلوّ من طريق أبي كنانة محمد بن الأشرس الوراق، حدّثنا أبو عمير الحنفي، عن فرة بن خالد عن الحسن، عن أمّه، عن أم سلمة في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قالت: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر))^(١). قال شيخ الإسلام: ((وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة -رضي الله عنها- موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يُعتمد عليه))^(٢).

وقال الذهبي: ((هذا القول محفوظ عن جماعة كربيعة الرأي، ومالك الإمام، وأبي جعفر الترمذي، فأما عن أم سلمة فلا يصح؛ لأنَّ أبا كنانة ليس بثقة، وأبو عمير لا أعرفه))^(٣). وقال الذهبي في ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين عن ابن الأشرس: ((له مناكير، ليس بشيء))^(٤).

أما أثر ربعة الرأي فقد رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد وابن قدامة في العلوّ من طريق يحيى بن آدم عن ابن عيينة قال: سئل ربعة عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ قال: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق))^(٥).

(١) شرح الاعتقاد للالكائي (٣/٣٩٧)، عقيدة السلف للصابوني (ص:٣٧)، إثبات صفة العلوّ لابن قدامة (ص:١٥٨)، صفة العلوّ للذهبي (ص:٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٣٦٥).

(٣) العلوّ للذهبي (ص:٦٥).

(٤) ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين (ص:٥٨).

(٥) شرح الاعتقاد للالكائي (٣/٣٩٨)، إثبات صفة العلوّ لابن قدامة (ص:١٦٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((روى الخلال بإسناد كلهم ثقات عن سفيان بن عيينة قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن ..)) فذكره^(١).

ورواه الذهبي في العلوّ من طريق النجّاد قال: حدّثنا معاذ بن المثنى حدّثني محمد بن بشر حدّثنا سفيان [وهو الثوري] قال: ((كنت عند ربيعة بن أبي عبد الرحمن ...)) فذكره^(٢).

قال الألباني: ((وهو صحيح))^(٣).

ورواه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عبد الله بن صالح بن مسلم قال: سئل ربيعة الرأي عن قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟، قال: ((الكيف مجهول، والاستواء غير معقول، ويجب عليّ وعليكم الإيمان بذلك كلّ))^(٤).

هكذا لفظه: ((الكيف مجهول، والاستواء غير معقول))، وهو مخالف للفظ السابق في الطريقتين المتقدمتين، وفي إسناده عبد الله بن صالح بن مسلم وهو أبو صالح المصري كاتب الليث، قال الحافظ في التقريب: ((صدوق كثير الغلط، ثبت في كتابه، وكانت فيه غفلة)).

ثم هو أيضاً لم يدرك ربيعة، فقد كان مولده سنة سبع وثلاثين ومائة كما في ترجمته في تهذيب الكمال^(٥)، وكانت وفاة ربيعة الرأي على الصحيح كما في التقريب لابن حجر^(٦) سنة ست وثلاثين ومائة.

أورد هذه الآثار الثلاثة . أعني أثر أم سلمة وربيعة ومالك . ابنُ قدامة في كتابه ((ذمّ التأويل)) ثم قال: ((وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى واللفظ، فمن المحتمل أن يكون ربيعة ومالك بلغهما قول أم سلمة فاقتديا بها وقالوا مثل قولها لصحتها وحسنه وكونه قول إحدى أزواج النبي ﷺ، ومن المحتمل أن يكون الله تعالى وفقهما للصواب وألهمهما من القول السديد مثل ما ألهمها))^(٧).

(١) مجموع الفتاوى (٤٠/٥).

(٢) العلوّ (ص: ٩٨).

(٣) مختصر العلوّ (ص: ٩٧).

(٤) الأسماء والصفات (٣٠٦، ٣٠٧/٢).

(٥) (١٠٧/١٥).

(٦) (ص: ٣٢٢).

(٧) ذمّ التأويل (ص: ٢٦).

وقد تقدّم أن أثر أم سلمة -رضي الله عنها- لم يثبت عنها، فلم يبق إلا الاحتمال الثاني وهو أن الله وفقهما للصواب وألهمهما هذا القول السديد، وربما أن مالكا -رحمه الله- سمعه من شيخه فافتدى به، أو أنه لم يسمعه منه ولكن وُفق إليه كما وُفق إليه شيخه.

وذكر الذهبي في كتابه الأربعين أن هذا الأثر يروى أيضاً عن وهب بن منبه^(١)، لكن لم أقف عليه في مصادر التخريج.

ويشبهه تماماً قول ربيعة ومالك هذا قول أبي جعفر الترمذي (ت ٢٩٥هـ) -رحمه الله- عندما سُئل عن صفة النزول.

قال الخطيب البغدادي: حدّثني الحسن بن أبي طالب قال: نبأنا أبو الحسن منصور بن محمد بن منصور القزاز قال: سمعت أبا الطيب أحمد بن عثمان السمسار والد أبي حفص بن شاهين يقول: حضرت عند أبي جعفر الترمذي فسأله سائل عن حديث النبي ﷺ: ((إنَّ الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا ...))، فالنزول كيف يكون يبقى فوقه علو؟!، فقال أبو جعفر الترمذي: ((النزول معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))^(٢).

وأورده الذهبي في العلو، قال الألباني -حفظه الله-: ((وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات ...))^(٣).

وعلق الذهبي على هذا الأثر بقوله: ((صدق فقيه بغداد وعالمها في زمانه؛ إذ السؤال عن النزول ما هو؟ عيٌّ؛ لأنه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة، وإلا فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جليّة واضحة للسامع، فإذا اتّصف بها من ليس كمثله شيء، فالصفة تابعة للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر، وكان هذا الترمذي من بحور العلم ومن العباد الورعين. مات سنة خمس وتسعين ومائتين))^(٤).

ويشبهه هذا الأثر إلى حدّ ما ما أجاب به سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣هـ) عندما سُئل عن القدر.

قال الحافظ اللالكائي: أخبرنا محمد بن إبراهيم النجيري، قال: ثنا أبو عبيد محمد بن علي بن حيدرة، قال: ثنا أبو هارون الأبلّي وكان ممن صحب سهل بن عبد الله، وكان رجلاً صالحاً،

(١) الأربعين (ص: ٨٠ ضمن مجموع الرسائل الست له).

(٢) تاريخ بغداد (١/٣٦٥).

(٣) مختصر العلو (ص: ٢٣٢).

(٤) مختصر العلو (ص: ٢٣١).

وكان يُقرئنا القرآن في المسجد الجامع، قال: سئل سهل بن عبد الله عن القدر، فقال: ((الإيمان بالقدر فرضٌ ، والتكذيب به كفرٌ، والكلام فيه بدعةٌ، والسكوت عنه سنةٌ))^(١).
ثم إنَّ لأهل العلم أقوالاً كثيرةً جداً مماثلة لقول الإمام مالك هذا، وتؤدي إلى مقصوده، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: ((وهكذا سائر الأئمة قولهم يوافق قول مالك ...))^(٢).

ومن أقوال السلف المماثلة لقول مالك ما يلي:

١ . قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((روى أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن الأوزاعي قال: سئل مكحول والزهري عن تفسير الأحاديث فقالوا: ((أمروها كما جاءت))، وروى أيضاً عن الوليد ابن مسلم قال: سألت مالك ابن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات ، فقالوا: ((أمروها كما جاءت))، . وفي رواية قالوا: ((أمروها كما جاءت بلا كيف)) . وقولهم -رضي الله عنهم-: ((أمروها كما جاءت)) ردُّ على المعطلة، وقولهم: ((بلا كيف)) ردُّ على الممثلة، والزهري ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهم، والأربعة الباقون أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين، ومن طبقتهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وأمثالهما ...)).

وأورد أثر مالك وربيعه ثم قال: ((فقول ربيعة ومالك)) الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب)) موافق لقول الباقيين: ((أمروها كما جاءت بلا كيف))، فإنما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول))، ولما قالوا: ((أمروها كما جاءت بلا كيف))، فإنَّ الاستواء حينئذ لا يكون معلوماً، بل مجهول بمنزلة حروف المعجم، وأيضاً فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، إنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات.

وأيضاً فإنَّ من ينفي الصفات الخبرية أو الصفات مطلقاً لا يحتاج إلى أن يقول: ((بلا كيف))، فمن قال: إنَّ الله ليس على العرش، لا يحتاج أن يقول: بلا كيف، فلو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا: بلا كيف.

وأيضاً فقولهم: ((أمروها كما جاءت)) يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنها جاءت ألفاظاً دالةً على معاني، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال أمروا لفظها مع اعتقاد أن

(١) شرح الاعتقاد (٤/٧١١).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٣٦٥).

المفهوم منها غير مراد، أو: أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلّت عليه حقيقةً، وحينئذ تكون قد أمرت كما جاءت، ولا يقال حينئذ: ((بلا كيف))؛ إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول.

وروى الأثرم في السنة وأبو عبد الله بن بطة في الإبانة وأبو عمرو الطلمنكي وغيرهم بإسناد صحيح عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون . وهو أحد أئمة المدينة الثلاثة الذين هم: مالك بن أنس وابن الماجشون وابن أبي ذئب . وقد سُئل عما جحدت به الجهمية: ((أما بعد فقد فهمتُ ما سألتَ فيما تتابعت الجهمية ومن خلفها في صفة الرب العظيم الذي فاقت عظمته الوصف والتدبر، وكَلَّت الألسن عن تفسير صفته، وانحصرت العقول دون معرفة قدرته، وردت عظمته العقول فلم تجد مساعاً فرجعت خاسئة وهي حسيرة، وإنما أمروا بالنظر والتفكير، فيما خلق بالتقدير، وإنما يقال: ((كيف)) لمن لم يكن مرّة ثم كان، فأما الذي لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل، فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو، وكيف يعرف قدر من لم يبدأ، ومن لا يموت ولا يبلى؟، وكيف يكون لصفته شيء منه حدٌّ أو منتهى يعرفه عارف، أو يحدُّ قدره واصف؟، على أنه الحق المبين لا حق أحق منه ولا شيء أبين منه، الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه، لا تكاد تراه صغيراً يحول ويزول، ولا يُرى له سمع ولا بصر، لما يتقلّب به ويحتال من عقله أعضل بك وأخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين، وخالقهم، وسيّد السادة، وربُّهم، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

اعرف -رحمك الله- غناك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها، إذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم ما لم يصف؟!، هل تستدل بذلك على شيء من طاعته؟، أو تزجر به عن شيء من معصيته؟ ...)) .

إلى أن قال: ((فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله ﷺ سميانه كما سماه، ولم تتكلف منه صفة ما سواه، لا هذا ولا هذا، ولا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف ...))، إلى آخر كلامه -رحمه الله-^(١).

٢ . وقال إسماعيل بن علي الأبلي: سمعت سهل بن عبد الله بالبصرة سنة ثمانين ومئتين يقول: ((العقل وحده لا يدل على قديم أزلي فوق عرش محدث، نصبه الحق دلالة وعلماً لنا لتتهدي

(١) الحموية (ص: ٢٤ - ٢٧).

القلوب به إليه ولا تتجاوزته، ولم يكلف القلوب علم ماهية هويته، فلا كيف لاستوائه عليه، ولا يجوز أن يقال: كيف الاستواء لمن أوجد الاستواء؟ ، وإنما على المؤمن الرضى والتسليم لقول النبي ﷺ: ((إنه على عرشه))، وقال: إنما سمي الزنديق زنديقاً؛ لأنه وزن دق الكلام بمخبول عقله وقياس هوى طبعه، وترك الأثر والافتداء بالسنة، وتأول القرآن بالهوى، فسبحان من لا تكيفه الأوهام، في كلام نحو هذا))^(١).

٣ . وقال الإمام أبو حنيفة في كتابه الفقه الأكبر: ((فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال إنَّ يده قدرته أو نعمته؛ لأنَّ فيه إبطال الصفة، هو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف))^(٢).

٤ . وروى الأثرم في كتاب السنة حدثنا إبراهيم بن الحارث يعني العبادي، حدثني الليث بن يحيى، قال: سمعت إبراهيم بن الأشعث، قال أبو بكر صاحب الفضيل: سمعت الفضيل بن عياض يقول: ((ليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف؛ لأنَّ الله وصف نفسه فأبلغ فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، فلا صفة أبلغ مما وصف الله به نفسه، وكذا النزول والضحك والمباهاة والاطلاع، كما شاء أن ينزل، وكما شاء أن يباهي وكما شاء أن يطلع، وكما شاء أن يضحك، فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف، وإذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب ينزل عن مكانه، فقل أنت: أنا أومن برب يفعل ما يشاء))^(٣).

٥ . وعن سلمويه بن عاصم قاضي هجر قال: ((كتب بشر المريسي إلى منصور بن عمار يسأله عن قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ : كيف استوى؟، فكتب إليه: استواؤه غير محدود، والجواب فيه تكلف، ومسألتك عن ذلك بدعة، والإيمان بجملة ذلك واجب، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زُنُجٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾))^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/٣٣٢، ٣٣١)، وأورده الذهبي في العلو (ص: ٢٢٠ . مختصره)، لكن بلفظ: ((... لأنه لا يجوز لمؤمن أن يقول: كيف الاستواء، لمن خلق الاستواء ...))، وفيه إشكال ظاهر، إلا إن أريد بالاستواء الثاني استواء المخلوق.

(٢) شرح الفقه الأكبر لملا علي القاري (ص: ٣٦، ٣٧).

(٣) ذكره ابن تيمية في درة التعارض (٢/٢٤، ٢٣)، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ١٠٦، ١٠٥).

(٤) رواه الخطيب في تاريخه (١٣/٧٦، ٧٥)، وأورده الذهبي في السير (٩/٩٧)، وفي العلو (ص: ١٦١ . مختصره)، وضعف إسناده الألباني.

٦ . وسئل أبو علي الحسين بن الفضل البجلي عن الاستواء وقيل له: كيف استوى على عرشه؟، فقال: ((أنا لا أعرف من أنباء الغيب إلا مقدار ما كُشف لنا، وقد أعلمنا جلّ ذكره أنّه استوى على عرشه ولم يخبرنا كيف استوى))^(١).

٧ . وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي : ((أما الكلام في الصفات، فإنّ ما روي منها في السنن الصحاح، مذهبُ السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قومٌ فأبطلوا ما أثبتته الله، وحققها قوم من المشبتهين، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، والقصدُ إنّما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين ، ودينُ الله تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه، والأصلُ في هذا أنّ الكلام في الصفات فرغُ الكلام في الذات، ويحتذى في ذلك حدوه ومثاله، فإذا كان معلوماً أنّ إثبات ربِّ العالمين إنّما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنّما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: لله يدٌ وسمعٌ وبصرٌ، فإنّما هي صفاتٌ أثبتها الله لنفسه، ولا نقول: إنّ معنى اليد القدرة، ولا إنّ معنى السمع والبصر العلم، ولا نقول: إنّها جوارح، ولا نشبّهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارحٌ وأدواتٌ للفعل، ونقول: إنّما وجب إثباتها؛ لأنّ التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها لقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾، ﴿ وَكَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾))^(٢).

٨ . وقال أبو منصور معمر بن أحمد: ((ولما رأيت غربة السنة، وكثرة الحوادث واتباع الأهواء أحببت أن أوصي أصحابي وسائر المسلمين بوصية من السنة وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر، وأهل المعرفة والتصوف من السلف المتقدمين، والبقية من المتأخرين ... - فذكر أموراً- ثم قال : وأنّ الله ﷻ استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، فالاستواء معقول، والكيف فيه مجهول، والإيمان به واجب، والإنكار له كفر، وأنّه -جلّ جلاله- مستوٍ على عرشه بلا كيف، وأنّه -جلّ جلاله- بائنٌ من خلقه والخلق بائنون منه، فلا حلول ولا مازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنّه الفرد البائن من خلقه، الواحد الغني عن الخلق، علمه بكلّ مكان، ولا يخلو من علمه مكان))^(٣).

٩ . وقال ابن قتيبة: ((وعدلُ القول في هذه الأخبار أن نؤمن بما صحّ منها بنقل الثقات لها، فنؤمن بالرؤية والتجلي، وأنّه يعجب وينزل إلى السماء الدنيا، وأنّه على العرش استوى وبالنفس

(١) رواه الصابوني في عقيدة السلف (ص: ٤٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/٢٨٤).

(٣) ذكره التيمي في الحجة (١/٢٣٢)، ونقله شيخ الإسلام ابن تيمية كما في الفتاوى (٥/١٩١).

واليدين من غير أن نقول في ذلك بكيفية أو بحدّ أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت، فنرجو أن نكون في ذلك القول والعقد على سبيل النجاة غداً - إن شاء الله تعالى - ^(١).
والآثار في هذا المعنى عن السلف مستفيضة ، ومما روي في هذا المعنى - لكن لم أقف له على إسناد - ما روي عن الشافعي أنه قال - لما سئل عن الاستواء - : ((آمنت بلا تشبيه، وصدقت بلا تمثيل، واتهمت نفسي في الإدراك، وأمسكت عن الخوض غاية الإمساك)) .
وعن أحمد أنه قال: ((استوى كما ذكر لا كما يخطر للبشر)) ^(٢)، والله أعلم.
ومن جميل ما قيل في هذا شعراً قول الناظم:

<p>كما أخبر القرآن والمصطفى روى وأبرأ من قولي له العرش قد حوى على جبل الجودي من شاهق هوى به فتنة أو يبع تأويله غوى بتأويله كلاً ولم أقل احتوى بشيء سوى أنني أقول له: استوى ^(٣).</p>	<p>((على عرشه الرحمن سبحانه استوى وذاك استواء لائق بجلاله فمن قال مثل الفلك كان استواؤه ومن يتبع ما قد تشابهه يبتغي فلم أقل : استوى ولست مكلفاً ومن قال لي كيف استوى؟، لا أجيبه</p>
--	--

(١) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة (ص: ٥٣).

(٢) أوردهما مرعي الكرمي في أقاويل الثقات (ص: ١٢١)، والسفاري في لوامع الأنوار (١/ ٢٠٠).

(٣) انظر: الكواكب الدرية لابن مانع (ص: ٢٨).

المبحث الرابع: ذكر كلام أهل العلم في التنويه بهذا الأثر وتأكيدهم على أهميته، وجعله قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات

لا ريب في صحة هذا الأثر وثبوته عن إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس -رحمه الله-، وحسنه وقوة دلالاته، وقد تلقاه أهل العلم بالقبول، واستحسنوه واستجادوه، واعتبروه من أحسن جواب وأنبل جواب قيل في هذه المسألة، وجعلوه قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات تطبق في جميع الصفات، فيقال في كلِّ صفة ما قاله الإمام مالك -رحمه الله- في صفة الاستواء، وقد سبق أن مرَّ معنا في مبحث مستقلّ تخريج هذا الأثر وبيان ثبوته عن الإمام مالك -رحمه الله-. وسأتناول في هذا المبحث أمرين:

١ . ذكر بعض النقول عن أهل العلم في استحسانه والثناء عليه.
٢ . ذكر بعض النقول عنهم في عدّهم له قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات.
أولاً: أما كلام أهل العلم في استحسانه واستجادته وتلقيه بالقبول فكثير جدّاً، ولهذا لا يخلو في الغالب كتاب من كتب العقيدة لأهل السنة والجماعة من ذكر هذا الأثر والاستشهاد به والثناء عليه.

ومما جاء عن أهل العلم في الثناء على هذا الأثر واستحسانه ما يلي:

١ . قال الإمام أبو سعيد الدارمي عقب روايته لهذا الأثر في كتابه الرد على الجهمية: ((وصدق مالك، لا يُعقل منه كيف، ولا يُجهل منه الاستواء، والقرآن ينطق ببعض ذلك في غير آية))^(١).

٢ . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((وقول مالك من أنبل جواب وقع في هذه المسألة وأشدّه استيعاباً؛ لأنّ فيه نبذ التكييف وإثبات الاستواء المعقول، وقد ائتمَّ أهل العلم بقوله واستجادوه واستحسنوه))^(٢).

وقال أيضاً: ((وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول، فليس في أهل السنة من ينكره))^(٣).

(١) الرد على الجهمية للدارمي (ص: ٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٥٢٠)، شرح حديث النزول (ص: ٣٩١)، ومن المحتمل أن يكون من كلام أبي عمرو الطلمنكي.

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/٣٠٩).

وقال أيضاً: ((فإنه قد رُوي من غير وجه أن سائلاً سأل مالكا عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟، فأطرق مالك حتى علاه الرخصاء ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا رجل سوء، ثم أمر به فأخرج، ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك، وقد رُوي هذا الجواب عن أم سلمة -رضي الله عنها- موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يُعتمد عليه، وهكذا سائر الأئمة قولهم يُوافق قول مالك في أننا لا نعلم كيفية استوائه كما لا نعلم كيفية ذاته، ولكن نعلم المعنى الذي دلَّ عليه الخطاب، فنعلم معنى الاستواء، ولا نعلم كيفيته، وكذلك نعلم معنى النزول ولا نعلم كيفيته، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدرة، ولا نعلم كيفية ذلك، ونعلم معنى الرحمة والغضب والرضا والفرح والضحك ولا نعلم كيفية ذلك))^(١).

٣ . وقال الذهبي -رحمه الله-: ((هذا ثابت عن مالك، وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك، وهو قول أهل السنة قاطبة: أن كيفية الاستواء لا نعقلها، بل نجهلها، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به، ولا نتعمق ولا نتحدلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفيًا ولا إثباتًا، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه، ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله -جلَّ جلاله- لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً))^(٢).

٤ . وقال أبو المعالي الجويني في الرسالة النظامية في الأركان الإسلامية: ((ومما استُحسن من كلام مالك أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: كيف استوى؟، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فلتُجر آية الاستواء والمجيء وقوله: ﴿لَمَّا خَلَّطُ بِيَدَيَّ﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾^(٤)، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾^(٥)، وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا))^(٦).

(١) مجموع الفتاوى (٥/٣٦٥).

(٢) مختصر العلو (ص: ١٤٢، ١٤١).

(٣) سورة ص، الآية: (٧٥).

(٤) سورة الرحمن، الآية: (٢٧).

(٥) سورة القمر، الآية: (١٤).

(٦) العقيدة النظامية (ص: ٢٥)، ونقله ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/٢٤٧، ٢٤٦).

وإن كان أبو المعالي قد مال في رسالته هذه إلى تفويض المعاني، وهو آخر قوليه وظنَّ أن ذلك هو مذهب السلف كمالك وغيره، انظر: درة التعارض لابن تيمية (٥/٢٤٩).

٥ . وقال الإمام البغوي في تفسيره: ((فأما أهل السنة يقولون: الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكفل العلم فيه إلى الله ﷻ، وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ : كيف استوى؟، فأطرق رأسه ملياً وعلاه الرّحضاء ثم قال: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلاّ ضالاً، ثم أمر به فأخرج، وروي عن سفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات: أمرها كما جاءت بلا كيف))^(١).

٦ . وقال ملا علي القاري: ((ونعم ما قال الإمام مالك -رحمه الله- حيث سئل عن ذلك الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وهذه طريقة السلف وهي أسلم، والله أعلم))^(٢).

ومع ذلك فقد قال بعض جهّال المعاصرين بعد محاولة فاشلة لتضعيف هذا الأثر: ((وعلى أيّ فالقضية تبقى رأياً من عالم غير ملزم للناس ولا قاطع للجدل والفهم، ولا محدد لفهم واحد، بل لكلّ متّسع فيما يرى))^(٣).

فالجهمي له متّسع، والمعتزلي له متّسع، والأشعري له متّسع، فالله وحده المستعان.

ثانياً: أما عدّ أهل العلم لهذا الأثر قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات فمن ذلك:

١ . قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش؟، قيل له كما قال ربعة ومالك وغيرهما -رضي الله عنهما-: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنّه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه. وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟، قيل له: كيف هو؟، فإذا قال: لا أعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبي بالعلم بكيفية سمعه وبصره، وتكليمه، واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته))؟!^(٤).

(١) معالم التنزيل (٢/١٦٥).

(٢) شرح الفقه الأكبر (ص٣٨) وإن كان قد فهم منه تفويض المعنى على طريقة المؤولة.

(٣) انظر: هامش كتاب ((رسائل محمد نسيب الرفاعي -رحمه الله-)) بقلم: حسان عبدالمنان، طبع المكتب الإسلامي، الأولى، (٤١٤هـ).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/٢٥).

وقال أيضاً: ((ومن أوّل الاستواء بالاستلاء فقد أجاب بغير ما أجاب به مالك وسلك غير سبيله، وهذا الجواب من مالك -رحمه الله- في الاستواء شافٍ كافٍ في جميع الصفات مثل: النزول والمجيء، واليد، والوجه، وغيرها، فيقال في مثل النزول: النزول، معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهكذا يُقال في سائر الصفات؛ إذ هي بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسنة))^(١).

٢ . وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: ((وهذا الجواب من مالك ﷺ شافٍ، عامّ في جميع مسائل الصفات، فمن سأل عن قوله: ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾^(٢) كيف يسمع ويرى؟، أجيب بهذا الجواب بعينه، فقيل له: السمع والبصر معلوم، والكيف غير معقول، وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والنزول، والغضب، والرضى، والرحمة، والضحك، وغير ذلك، فمعانيها كلها مفهومة، وأما كيفيتها فغير معقولة؛ إذ تعقل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها، فإذا كان ذلك غير معقول للبشر، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟! .

والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل تثبت له الأسماء والصفات، وتنفي عنه مشابهة المخلوقات.

فيكون إثباتك منزهاً عن التشبيه، ونفيك منزهاً عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطل، ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثّل، ومن قال: استواء ليس كمثل شيء فهو الموحد المنزّه.

وهكذا الكلام في السمع والبصر والحياة والإرادة والقدرة واليد والوجه والرضى والغضب والنزول والضحك، وسائر ما وصف الله به نفسه))^(٣).

٣ . وقال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله-: ((سئل الإمام مالك -رحمه الله- وغيره من السلف عن قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ : كيف الاستواء؟، فقال:

(١) مجموع الفتاوى (٤/٤).

(٢) سورة طه، الآية: (٤٦).

(٣) مدارج السالكين (٨٦/٢).

الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فبيّن أنّ الاستواء معلوم، وأنّ كيفية ذلك مجهول، وهكذا يُقال في كلّ ما وصف الله به نفسه ((^(١)).

٤ - وقال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي: ((واعلموا أنّ آيات الصفات كثير من الناس يُطلق عليها اسم المتشابه وهذا من جهة غلط، ومن جهة قد يسوغ كما يثبتها الإمام مالك بن أنس، أما المعاني فهي معروفة عند العرب كما قال الإمام مالك بن أنس -رحمه الله-: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة))، كذلك يقال في النزول: النزول غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، واطّرد في جميع الصفات؛ لأنّ هذه الصفات معروفة عند العرب، إلا أنّ ما وصف به خالق السموات والأرض منها أكمل وأجلّ وأعظم من أن يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، كما أنّ ذات الخالق -جلّ وعلا- حق والمخلوقون لهم ذوات، وذات الخالق -جلّ وعلا- أكمل وأنزّه وأجلّ من أن تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين))^(٢).

والله صلوة تأتي في العدد القادم إن شاء الله تعالى وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه
أجمعين.

(١) طريق الوصول إلى العلم المأمول (ص:٨).

(٢) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص:٢١).

فهرس الموضوعات

١٣ مقدمة
٢١ تمهيد
	المبحث الأول :
٢١ ترجمة موجزة للإمام مالك بن أنس - رحمه الله -
	المبحث الثاني :
٢٦ في ذكر معتقد أهل السنة والجماعة في صفة الاستواء بإيجاز
	المبحث الثالث :
٣٤ في بيان أهمية القواعد وعظم نفعها في معرفة صفات الباري
	الفصل الأول :
 في تخريج هذا الأثر، وبيان ثبوته، وذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة
٣٧ وأقوال السلف الصالح
	المبحث الأول :
٣٨ تخريج هذا الأثر، وبيان ثبوته عن الإمام مالك - رحمه الله -
	المبحث الثاني :
٥١ ذكر الشواهد على هذا الأثر من الكتاب والسنة
	المبحث الثالث :
٧٦ ذكر نظائر هذا الأثر مما جاء عن السلف الصالح
	المبحث الرابع :
 ذكر كلام أهل العلم في التنويه بهذا الأثر، وتأكيدهم على أهميته، وجعله
٨٧ قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات